الأمل الأخير...

مجموعة قصصية

محمد شعبان

إسم العمل: الأمل الأخير / مجموعة قصصية
الكاتب: محمد شعبان
رقم الايداع : 2018/23249
الترقيم الدولي: 978-977-6056-68-8
مراجعة التصحيح اللغوي وتنسيق داخلي الكاتبة والروائية: هنـاء عودة
تصميم الغلاف: محمد علي

شهرزاد للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
القاهرة
هاتف: 01091744511
shahrazadpub@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي إقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الأمل الأخير...

إهداء عام

إلى من يظن أن حبل الأمل ضعيف للتشبث به

إهداء خاص

إلى سبب وجودي في الحياة
إلى من مدّ لي يد العون
إلى من هم سبب سعادتي وكلما رأيتهم ألهموني..
إلى إخوتي الثلاثة " إسلام ، أحمد ، مِنَّه "
إلى أكثر شخص شجعني على إنجاز هذا العمل، صديقي العزيز محمد عبد العليم

إذا انغمست في واقع الحياة ...

ستجد قصصاً خيالية تثير الأمل والألم !

كفاح الحياة

الحياة تجاعيد أفراح وأحزان

الحياة ضحكة ودمعة بيدقوا البيبان

الحياة لمة أحباب وجيران وفراق لأعز الجدعان

الحياة ركام وسط الدخان ميسرش منها غير الشجعان

الحياة حمل على كتف جعان وراحة لناس جشعان

الحياة تجاعيد بعد ما كانت وش سعيد

خد الحياة بسة من غير مناسبة محدش ضامن الشهقة

عيش يومك متخليهوش هويعيش

شخبط فيه وخلص فيه ريشك

المقدمة

رغم ما نمر به من مآسى لا يسعنا سوى شكر الله، فالإنسان لا يُساوي شيئاً بدون الأمال والطموح، لكن الأمال والطموح لا تساوي شيء إذا ظلت مجرد أفكار يتداولها عقلك دون تنفيذ.
لا تُهدر حياتك فى المعتاد وافعل غير المعتاد، وإصعد بحلمك عنان السماء وإذا وقفت السماء فى وجهك إخترقها وتقدم بخطى ثابتة، فالطموح ليس له سماء وليس له حدود، ولتعلم لولا الألم ما وجِدت السعادة ولا الراحة، ولولا المرض ما وجِدَ الشفاء، ولولا الفقر ما وجِد الثراء ولولا وجود الفشل ما وجِدَ النجاح.
فكن ما يمليه عليك قلبك وليس ما يمليه عليك الناس، فلن يندم معك أحد على شيء بل ستندم وحدك.

إذا أتتك لحظة يأس واعتقدت أنها النهاية المحتومة بالفشل تذكر ظلمة البئر على يوسف عليه السلام ومدى ظلم أخوته له، لكنه لجأ إلى الله فكان الله في عونه وعوضه خيرًا.
فكن على يقين وتأكّد أن الأفضل سيأتي قريبًا فلا تستسلم لليأس مهما كان، وتمسك برباط الأمل واسعَ نحوهدفك وحقق ما تتمنى، وكن الشخص الذي طالما حلمت أن تكونه، وقل في قرارة نفسك، يومًا ما سأجعلني فخورًا بنفسي، حينها لن تمنعك قوة على تحقيق ما تريده وما تحلم به، فالأحلام والأماني سلعة الأحمق؛ فلا تترك أحلامك وأمانيك مجرد أفكار يتداولها خيالك؛ فالناجح هو فقط من يهم لتنفيذ الأحلام والأماني وتحقيق النجاح، أحلامك وأمانيك دون أن تنزل بها على أرض الواقع ستظل في الهواء وأنت في الأسفل؛ فاصنع سلمك واصعد عليه

لتحصل عليها، "فلا تكن مجرد عابر بل اترك بصمة، فما جعل الله في قلبك رغبة في شيء، إلا لأنه يعلم أنك ستصل إليه.

دائمًا وبإستمرار خاطب نفسك قائلًا لها لم يفت الوقت بعد، وتذكر دائمًا أن إرادة الله تتفوق على كل شيء، فإرادة الله هي البطل الوحيد في أي سيناريو، ودائمًا يريد الله لعباده الخير.

فإذا عانيت من سوء الظروف تذكر الظروف التي مرّ بها سيدنا يوسف، لكنه صبر على البلاء وظلم أخوته، حتى نصره الله، فلا تترك لليأس سبيلًا يأتيك منه وأغلق في وجهه كل الأبواب واعلم أن الله لا يعطي لك شيئًا إلا إذا كنت جديرًا به وتستحق الاحتفاظ به؛ فإذا وهبك الله شيئًا جميلًا بحياتك وأصبح هو كل حياتك وفجأة يحرمك الله منه فهو اختبار صعب لقوة صبرك وتحملك للمصائب والصعاب الحياتية؛ فيختبر الله قوة إيمانك وثقتك به، فإذا إجتزته أو عملت على ذلك، مَنّ الله عليك بأفضل منه، حينها تستطيع الإحتفاظ به والمحافظه عليه، واعلم أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها فلن يهبك الله شيئًا ثمينًا أو يختبرك بمحنة إلا لأنه يعلم أنك كفءٌ لها، فيمكنك أن تحدد قدرك بيديك، فالقدر يسير وفقاً لإيمانك وسعيك خلف هدفك، فالقدر يتغير بالإيمان والسعي، وإعلم عزيزي أن الطريق إلى النجوم طويل وصعب، لكن الأصعب هو شعورك بالندم على عدم سلوكك طريق النجوم، لأنه لا شعور يضاهي شعورك بالسعادة عندما تصل إلى نجمك وتملكه، فإنتزع نجمك..

****

الأمل الأخير.....

راغب السوري

في أحد أيام الشتاء والطقس شديد البرودة والسماء عابسة بسحبها الرمادية المقلقة، وفي أحد أحياء مدينة "الزقازيق" حيث يقطن الحاج "محمود " صاحب الخمسين عامًا في بيت مكوّن من طابقين.

خرج الحاج محمود من بيته قاصدًا المسجد بعدما سمع صوت المؤذن، وبينما هو ذاهب لقضاء صلاة الظهر بالمسجد المجاور لبيته، لفت انتباهه شاب في عمر العشرين تقريبًا، يرتدي ثيابًا بالية ووجهه عابس حزين مهموم، استنتج الحاج محمود من مظهر الشاب أنه أحد المشردين أو أحد مجهولي الهوية الذين ليس لهم مأوى أو مصدر دخل.

يا له من مسكين، ما قصته؟ وأين أسرته؟ أليس له أحد في هذه الحياة؟!!

كل هذه الأسئلة تطايرت في رأس الحاج محمود ، كان الشاب جالسًا خارج المسجد ثم دخل إلى المسجد ليؤدي صلاة الظهر، بعد قضاء الصلاة، ذهب كل واحد إلى بيته أو إلى عمله، وكذلك عاد الحاج محمود إلى بيته، الجميع ذهبوا ما عدا ذلك الشاب المسكين بقي مكانه وهو ينظر من حوله فإذا بالمسجد فارغ ولم يبق سواه،

موظف المسجد يريد أن يغلقه ويذهب إلى بيته فالمسجد يفتح أثناء الصلاة ويغلق فيما بين الصلاة والأخرى، طلب موظف المسجد من الشاب أن يخرج من المسجد ليغلقه، خرج الشاب المسكين دون أن يتوسل إلى الموظف

ليمكث بالمسجد فكانت لديه عزة نفس، فلم يكن ليتوسل إلى أحد أو يطلب من أحد المساعدة.

جلس خارج المسجد بثيابه البالية التي لا تحميه من برد الشتاء، حانت صلاة العصر وعلا صوت المؤذن ليعلم الناس أن صلاة العصر قد حانت، أتى المصلون للمسجد لأداء الصلاة وكان من بين المصلين الحاج محمود . وقعت عيناه على نفس الشاب الماكث أمام المسجد، لكن في هذه المرة خرج منه شعور بالعطف والرأفة نحو هذا الشاب المسكين، لكنه لم يتخذ أي إجراء نحو هذا الشاب، لم يقدم له مساعدة مادية أو حتى معنوية.

انقضت الصلاة، ويود الشاب المسكين أن يطلب المساعدة المالية من الموجودين بالمسجد، أو حتى يساعده أحد منهم في إيجاد مأوى يأويه من البرد أو يساعده أحدهم في إيجاد عمل.

لكنه لا يريد أن ينظر أحد إليه بعين الإحسان والعطف والرأفة، فكانت لديه عزة نفس لا مثيل لها، في شدة احتياجه للمساعدة لا يطلبها من أحد لكنه ظل يدعو الله أن يفرج عنه كربه، وانهمر في البكاء داعيًا وراجيًا ربه أن يرفع عنه هذا البلاء الذي حل به وببلاده.

خرج من المسجد ليبحث عن عمل بالمحلات أو المطاعم، فكان يسأل بكل مكان، لكن لم يقبل أحد أن يعمل لديه هذا الشاب؛ فهناك مَن كان ينظر إليه باحتقار، وهناك من كان ينظر إلى هيئته يشعر تجاهه بالعطف.

فذلك الشاب المسكين كشرت له الدنيا عن أنيابها وقد عانى بما فيه الكفاية، لكنه ما زال واثقًا بأن الله سيبدل حزنه فرحًا، فما زال يظن في الله خيرًا رغم ما حدث له وما شاهده من أهوال تهدم الجبال؛ فهو متمسك بالأمل رغم

ضعفه فربما الفرج قريب، فلم ييأس للحظة؛ فربما هذه اللحظة أو هذا الموقف هو نقطة التحول في حياته؛ فإذا اجتاز هذه المحنة وهذا الاختبار سيعوضه الله على صبره لا محالة.

أصبح الطقس أكثر برودة مع حلول الليل واقتراب صلاة المغرب، فكان أول مكان خطر بعقل الشاب المسكين ليذهب إليه بعدما شعر بالتعب هو المسجد المجاور لبيت الحاج محمود ، انطلق نحو المسجد مهمومًا حزينًا، بحالة يرثى لها متفكرًا في حالته وظروفه التي يمر بها، هل ستستمر هذه المأساة في هذه الحياة الظالمة؟ متذكرًا ما حدث له ولأسرته في "حلب" من قصف طائرات ورصاص يتطاير ومباني تُدمر وتحترق وصراخ الأهالي والأطفال وجثث أسرته تحت الأنقاض، والمقابر الجماعية لكثير من الموتى دفِنوا بها سويًا لضيق الوقت وكثرة العدد.

وصل إلى المسجد وكان المؤذن لا يزال يؤذن أذان المغرب، توافد المصلون إلى المسجد وكالعادة من ضمنهم الحاج محمود ، وقعت عيناه على ذات الشاب، فكان من بين الجالسين بالمسجد لأداء صلاة المغرب.

قُضيت الصلاة ولُبست الأحذية وسارت بأصحابها حيث بيوتهم

وبقي بعض المصلين بالمسجد، منهم من يتحدثون بعضهم إلى بعضٍ ومنهم من يقرأ القرآن منتظرين صلاة العشاء؛ فالمسجد لا يغلق فيما بين صلاة المغرب والعشاء، وهذا الشاب يمكث وحيدًا في إحدى زوايا المسجد.

كان من بين الجالسين الحاج محمود ينتظر صلاة العشاء بالمسجد، التفت الحاج محمود ونظر حوله ليرى الشاب، وجده قد غلبه النعاس بإحدى زوايا المسجد، لاحظ الحاج محمود على هذا الشاب أنه رغم ثيابه البالية المتسخة

معظم أجزاؤها ومظهره يبدو مشردًا بعض الشيء، لكن به شيئًا غريبًا، فملامح وجهه وتقاطيعه لا تبدو مصرية مائة بالمائة، فعلى ما يبدو أنه ليس من أبناء الشوارع أو مشردًا عاديًا.

- إيه قصة الشاب المسكين دا؟!

فكان هذا السؤال من بين الأسئلة التي تراود الحاج محمود تجاه هذا الشاب، صاحب البشرة البيضاء، في وسط كل هذا وهو ينظر إلى الشاب، إذا بالشاب ينتفض من نومه مفزوعًا كأنه يحلم بكابوس مرعب، فحزن الحاج محمود لحال هذا الشاب المسكين صاحب ما يقارب العشرين خريفًا.

فخاطب الحاج محمود نفسه قائلًا:

- الشاب الصغير دا عانى قد إيه، وآسى قد إيه في حياته علشان يقوم من نومه مفزوع بالطريقة دي من حلم شافه.. حلم؟! لا لا دا أكيد كابوس.. أنا لازم أروح أساعده وأطمن عليه وأقدم ليه مساعدة مادية أومعنوية حتى.. أهو يحس إن في حد حاسس بيه.. وجايز أعرف أخفف من فزعه وخوفه اللي ظاهرين على وشه.

يجلس الشاب في إحدى زوايا المسجد كالجنين يوم ولدته أمه منكمشًا يرتعش مضمومة ركبتاه إلى صدره وذراعاه تحيطان بقدميه ممسكتين بهما.

وقف الحاج محمود من مكانه وسار نحو الشاب، حتى وصل إليه ثم دس يده في جيبه مخرجًا مبلغًا من المال ليعطيه للشاب المسكين، مدّ يده نحو الشاب قائلًا:

- اتفضل يا بني.

رفع الشاب رأسه ناظرًا للحاج محمود رادًا يده بكفه الأيمن رافضًا أخذ المال منه وقال:

- أنا مو متسول يا عمي متشكر لكرم أخلاقك.

تفاجأ الحاج محمود من لهجة الشاب ثم فتح فمه قائلًا:

- مش لازم تكون متسول علشان تقبل مني المساعدة البسيطة دي.

- متشكر يا عمي لكني أنا ما بريد هذه المساعدة، أنا آسف.

تعجب الحاج محمود من رد فعل الشاب تجاه مساعدته، فكانت لديه عزة نفس لا مثيل لها، استنتج الحاج محمود أنه ليس مصريًا؛ وذلك لاختلاف لهجة الشاب، أراد الحاج محمود أن يعرف قصة هذا الشاب، فكان لديه فضول أن يعرف، من أين أتى؟ وماذا أتى به إلى هنا؟

جلس الحاج محمود بجانبه ثم وجه إليه السؤال قائلًا:

- أنت من أي بلد يا بني؟ وإيه اللي جابك هنا؟

وكأن الحاج محمود يشعر بأن وراء هذا الشاب قصة وأحداثًا عصيبة اضطرته إلى التوجه إلى مصر.

- أنا من حلب بسوريا يا عمي.

أومأ الحاج محمود برأسه متفهمًا أمره، مستنتجًا أنه أحد اللاجئين السوريين الذين لجأوا إلى مصر بعد ما حدث في سوريا في الآونة الأخيرة من خراب ودمار وحرب.

ثم نظر إليه الحاج محمود بعين الرأفة والعطف، متفكرًا فيما عاناه وما يعانيه هذا الشاب المسكين صغير السن، وكم قاسى من حزن ووجع وجوع وظلم.

- أنت اسمك ايه يا بني؟

- اسمي راغب يا عمي.
- إيه اللي حصل معاك يا بني وفين أهلك؟ فضفض ما تخافش.
خرجت هذه الكلمات من فمه مصاحبة لها هزهزة برأسه توحي بالاطمئنان، وكأن راغب كان ينتظر هذا السؤال بفارغ الصبر فانطلقت الكلمات من فمه لتحكي قصته وانفرط عقد بكائه وهو يروي قصته.
- أنا كنت عايش في أسرة ميسورة الحال بـ"حلب" وكانت حياتنا سعيدة وهادئة، ولدينا بيت كبير بحي "بستان القصر". كنا نملك أحد أكبر المطاعم بحلب اشتغلت فيه أنا ووالدي.. لكن قوات المعارضة السورية سيطرت على الأحياء الشرقية.. ونحن كنا ضمن هذه الأحياء التي وقعت تحت سيطرة المعارضة السورية، وكنا عم نسمع صوت الغارات مرتين بالأسبوع على الأقل.. وصوت الرصاص كنا عم نسمعه باستمرار.. وفي يوم جمعة بشهر "مارس ألفين وستاش" ذهبت مع أصحابي لنلعب الكرة بساحة جوار منزلنا.. وفجأة بلش القصف الجوي على منطقتنا والصواريخ بتهبط على البيوت كل واحد ركض نحو بيته.. ركضت نحو بيتي فوجدته حطامًا وأنقاضًا.. قد وصل إليه القصف وقتل كل عيلتي ما بقي منهم حدا.. أبي أمي إخواتي الصغار ماتوا وضليت أصرخ وأبكي، في هذه اللحظة فقدت الأمل بالحياة، ماتوا من كانوا مصدر قوتي في هذه الحياة، أصبحت ضعيفًا بدونهم.
- أبي كان يقول لي خليك أقوى من هيك نحنا مستحيل يصير لنا شيء، لكن لما مات عرفت اني ممكن يصيرلي أي شيء.. الطائرات ما زالت تحلق في سمائنا بعدما قصفت بيتنا ومعظم البيوت اللي بحينا.. واحترقت الأحياء المحيطة بحينا بسبب القصف.

استمر القصف يومين على التوالي حتى احترقت حلب ثم بلشنا باستخراج الجثث من تحت الأنقاض واحدة ورا التانية.. واستطعنا إخراج جثث عيلتي من تحت الأنقاض.. ثم دفناهم بمقابر جماعية لظروف القصف ولعدم اتساع مقابرنا لعدد الموتى، وبعد أن صارت حلب أنقاضًا ما عادت تصلح للعيش فيها.. واضطر معظم سكان حلب إلى الرحيل عنها فمنهم من ذهب إلى أوروبا عن طريق البحر تهريبًا ومنهم من لجأ إلى مصر.. فأتيت معهم إلى مصر كلاجئ؛ فكنت أحب أن آتي إلى مصر كسائح أو زائر؛ فلم أتوقع أن آتي إلى مصر كلاجئ أبدًا.. اتبهدلنا بسوريا حتى خرجنا منها وكنا راح نموت بالبحر.. لما جينا هون تفرقنا كل واحد باتجاه وبقيت لحالي.. عانيت من الفقر والجوع والذل والإهانة كباقي أو كمعظم السوريين فأكلت من القمامة أحيانًا ونمت بالشوارع.. ناس كتير عاملتني بعطف.. وناس أخرى كانت تنظر إليّ باشمئزاز وعاملتني بقسوة.. فمنهم من قدم لي المساعدة ويد العون ومنهم من استهزأ بي واحتقرني لكن الحمد لله على كل شيء.

- طب معرفتش تلاقي شغل يا بني؟ أو مكان تنام فيه؟

- والله يا عمي برمت كتير وبحثت عن شغل لكني ما لاقيت شغل.. رغم اني أعرف صناعة الطعام السوري فقد علمني إياه والدي بمطعمنا بحلب، رغم ذلك لم يقبلني أحد للعمل بمطعمه.. ولم يقبل بي أحد للعمل عنده فكيف الاقي سكن أنام فيه.

كاد يغوص وجه راغب في ماء بكائه الذي يتسلسل من عينيه، ربّت الحاج محمود على كتف راغب قائلًا له:

- ماتبكيش يا بني ربنا هيدبرلك أمرك إن شاء الله.

ثم مد يده بجيبه وأخرج منديلًا من القماش وأعطاه لراغب ليمسح دموع عينيه، نظر الحاج محمود لراغب نظرة الأب لابنه، نظرة كلها عطف ورأفة وأسى.

قاطع مجلسهما صوت أذان العشاء، وقفا بعضهما بجانب بعض بالصلاة، بعد انتهاء الصلاة تحدث الحاج محمود مع راغب قائلًا له:

- انت أكيد ملكش مكان تنام فيه صح؟

- لا ما لي مكان انام فيه يا عمي.

- أنا عمك محمود يا ابني، بقولك ايه انا عندي شقة متوضبة في الدور الأرضي مفيش حد ساكن فيها هتيجي تقعد فيها لحد ما تلاقي شغل.

- بتشكرك كتير يا عم محمود بس كدا راح اتقل عليك.

- ولا هتتقل ولا حاجة يا راغب دا واجبي اللي لازم اعمله مع اخواتنا السوريين.

نهضا وخرجا من المسجد ثم انطلقا نحو بيته وإذ بالسماء تسقط مياهها؛ فنظر راغب إلى السماء حامدًا الله في نفسه قائلًا:

- اللهم لك الحمد.

****

بخطوات مسرعة متلهفة وصلا إلى البيت، ثم دلفا مسرعين إلى داخل الشقة التي هي بالدور الأرضي، ساد الصمت للحظات قليلة، تظهر في عيني راغب نظرات الخجل والعرفان لمعروف هذا الرجل الطيب الذي قل وجود أمثاله في هذا الزمان، قطع هذا الصمت صوت الحاج محمود الطيب، صوت يحمل في ثناياه كل معاني المحبة والعطف والرقة الممزوجة بالوقار والمسؤولية والأبوة، صوت تحب أن تسمعه من رجل في مثل سنه، قائلًا:

- يا رب الشقة تعجبك.

- الشقة منيحة جدًا يا عم محمود.. ربنا يجازيك خير يا عم محمود ويجعله في ميزان محمود اتك.

- يا رب احنا وانت يا راغب يا ابني.. وبعدين انا عملت إيه!

ثم قال الحاج محمود مازحًا، وتشق وجهه نصف ابتسامة تحمل قدرًا من البراءة والصفاء:

- معلش هي متعفرة شوية عشان محدش قعد فيها من زمان.

ابتسم راغب على غير عادته، ابتسم لسماعه هذا الكلام الجميل من فم الحاج محمود الطيب، ابتسم لأنه بدأ يشعر أنه في بيته وسط بلده وليس لاجئًا في بلد غريب، فكانت هذه محاولة من الحاج محمود طيب القلب أن ينسيه ما حدث له من مصائب ويشعره أنه في بلده وسط أهله؛ فهذا القلب يحمل في طياته جدعنة المصريين التي تظهر في المواقف والشدائد، الشعب الذي يحمل صفات أُم البلاد، ففي طباعهم تظهر عراقة مصر وتاريخها، مصر المُحبة للسلام التي تعد أقدم دولة على وجه الأرض وستظل في رباط إلى يوم

الدين؛ فهي أطول الدول عمرًا، فهي أولهم أُنشئت وآخرهم ستنتهي؛ فهل هناك قدر أعظم من هذا ؟!

سرعان ما تركه الحاج محمود قائلًا:

- أسيبك ترتاح بقى.. والعشا هينزلك كمان خمس دقايق.

- ملوش لزوم والله يا عم محمود.

- ملوش لزوم إيه انت تلاقيك على لحم بطنك من الصبح.

رن صوت إغلاق الباب في أذني راغب، الذي صعدت إلى ذهنه ذكريات بيته بحلب وصوت أمه وهي تناديه لتناول الطعام مع أسرته، يتذكر سماء حلب الصافية في ليالي الربيع، التي طالما مكث تحتها متأملًا نجومها وبدرها المتشعشع كشمعة مضيئة وسط غرفة مظلمة، يقتله الشوق والحنين لحضن والديه ولابتسامة والده في حديثه، في احتضانه له، في مجلسه، حن لدفء شوارع بلدته، للهوهِ ولعبهِ تحت دموع السماء في الشتاء، لضحكاته وآهاته مع أهله والأصدقاء، مع الجيران والأحباء، آه يا حلب آه.

فيحدث نفسه قائلًا:

- هل لي سبيل إليك بعد أن تدمرت واحترقت.

صرخ جسده صرخة سال لها دمعه، كفيضان النهر، ثم جلس على أحد الكراسي بالشقة ليريح جسده، مسندًا ظهره إلى الكرسي، متكئًا على يده اليمنى مواربًا عينيه سارحًا متأملًا مصيره المتعثر المحفوف بالظلمات والعقبات، غلبه النعاس بمكانه.

****

طرق الحاج محمود الباب ففتحت له دينا ابنته، شابة في سن العشرين ذات قدر كبير من الجمال والأدب والوقار وذات دين وخلق، تدرس في عامها الثالث الجامعي بكلية تجارة، وصاحبة وجه جميل وبشوش، ذات عينين خضراوين شفافتين، يبدو عليها البراءة والوسامة فسبحان مَن سوى هذا الجمال النادر.

وكانت أمها الحاجة صفية جالسة بالصالة تنتظر عودة والدها:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليك السلام ورحمة الله يا حاج... اتأخرت النهاردا في صلاة العشا عن كل يوم يعني!

- هقولك بعدين بس دلوقتي عايزك يا دينا تحضري عشا حلو كدا بإديكِ الحلوين عشان في ضيف عندنا تحت.

- حاضر يا بابا.. بس ضيف مين؟

- روحي انتِ بس حضري العشا يللا.

- خير يا حاج مين اللي تحت؟

- بصي يا ستي..

وأخذ يحكي لها قصة راغب بالتفصيل ويشرح لها ظروفه، وهي أبدت تعاطفها مع راغب وأخذا يتبادلان أطراف الحديث حوله حتى أتمت دينا تجهيز العشاء وخرجت به إلى والدها.

- العشا جهز اهو يا بابا..

ثم بلهجة استفهام مازحة:

- مين بقا الشاب اللي تحت دا؟ أنا سامعاكوا بتقولوا مسكين وغلبان ومحترم... إيه حكايته بقى دا يا حاج محمود؟!

- أمك هتحكي لك انا نازل أودي العشا.. آه من حق ما تجيبي غيارين من هدوم أحمد القديمة.. أصل الهدوم اللي عليه متبهدلة خالص.

- حاضر يا بابا.

نزل الحاج محمود بصينية العشاء والملابس.

****

فجأة وجد رأسه تسقط من أعلى كتفيه؛ ليستيقظ على صوت طرق الباب، قفز من مكانه ليفتح الباب فإذا به الحاج محمود وبين يديه صينية عليها وجبة العشاء المُعَدَّة خصيصًا لراغب، ومعلقًا بسبابته اليمنى حقيبة بلاستيكية بها معطف من الجلد بحالة لا بأس بها وقميص أسود وبنطال جينز، فيقول مبتسمًا:

- معلش يا ابني اتأخرت عليك شوية.

- لا والله ما اتأخرت ولا شيء يا عم محمود

- اتفضل كل دي لقمة بسيطة ودول بقى جاكيت وقميص وبنطلون... عشان تغير هدومك دي، معلش هتلاقي الهدوم قديمة شوية أصلها هدوم ابني أحمد الكبير الله يرحمه.

- الله يرحمه برحمته، ربنا يجازيك خير على اللي بتعمله معايا يا راجل يا طيب يا جدع.

- أنا عملت إيه يا ابني؟! دا واجبي اللي مفروض أعمله مع أخواتنا السوريين... بقولك ايه الكيس فيه صابونة والحمام جوة المايا شغالة فيه ما تخافش... يلا أسيبك أنا بقى تتعشى وتنام... تصبح على خير.

- وانت من أهل الخير.

أتى صباح اليوم التالي بشمسٍ مضيئة عن كل يوم، وكل ما يشغل تفكير الحاج محمود هو كيف يساعد راغب؛ فهو يفكر بشأنه كأنه ابنه، وأصبح مسؤولًا منه، أتت على خاطره فكرة مشروع جيد جدًا لهذا الشاب. الذي هو في مقتبل العمر، وتعاهد بينه وبين ربه أنه سيتكفل بكل تكاليف هذا المشروع.

استيقظ راغب مبكرًا بوجه متهلل سعيد؛ فقد شعر بالراحة التي لم يشعر بها منذ فترة، لم ينعم بنومة هادئة مطمئنة كهذه منذ تم قصف حلب. استقام من سريره ثم وضبه، بعد ذلك خرج إلى الصالة فوجدها مليئة بالغبار وتحتاج إلى تنظيف، ونظر إلى الصينية فما زالت كما هي منذ البارحة عليها الأطباق متسخة تنتظر من ينظفها، أخذها وذهب إلى المطبخ القديم بعض الشيء، وقام بتنظيف الأطباق، ثم انطلق ينظف الشقة كاملةً، أخذ يكنس ويوضب فيها، ثم اتجه ليستحم ويغير ملابسه البالية.

****

- الفطار جهز يا دينا؟
- ثواني ويكون جاهز يا بابا.
- طب جهزي الصينية يا دينا ونزليها لي كمان عشر دقايق تحت عشان هفطر مع راغب النهاردا.
- حاضر يا بابا.

كانت الساعة العاشرة والنصف صباحًا حينما طرق الحاج محمود باب الشقة التي بها راغب، توقع الحاج محمود أن يكون راغب ما زال نائمًا من تعبه وإرهاقه البارحة والأيام الماضية، حيث كان يمكث بالشارع بلا مأوى ينعم فيه بنوم هنيء وهادئ، يا له من شاب مسكين، ما زال في مقتبل العمر وبلاده احترقت وتدمرت وأسرته توفت في القصف وأصبح لاجئًا مشردًا.

فتح راغب الباب وبدا مظهره نظيفًا مهندمًا فقد استحم وارتدى الملابس التي أعطاها له الحاج محمود، بابتسامة الحاج محمود المعهودة بادر قائلًا:

- صباح الخير يا راغب.
- صباح النور يا عم محمود اتفضل ادخل.

وجد الحاج محمود الشقة نظيفة ومُرتبة ثم نظر إلى راغب بعد أن جلس على أحد الكراسي بوسط الصالة أمام طاولة قديمة وقال:

- كويس أن الهدوم جت على مقاسك.

ابتسم راغب قائلًا:

- أنا مو عارف أشكرك ازاي يا عم محمود... والله جميلك هاد فوق راسي.
- أنا معملتش غير الواجب يا راغب يا ابني متشكرنيش... ثم أشار إليه قائلًا:

- تعالى اقعد جمبي هنا.
جلسا بعضهما بجوار بعضٍ متكئين على طاولة قديمة في منتصف الصالة.
- بقولك ايه أنا عندي ليك فكرة مشروع يا راغب هتعجبك قوي.
تفاجأ راغب من كلام الحاج محمود فتسارعت المشاعر والأفكار داخل عقله؛ فكيف لرجل غريب عنه أن يفكر في مساعدته بهذه الطريقة ويهتم لأمره لهذه الدرجة؛ فما هذا المشروع وكيف سيدبر المال لهذا المشروع؟! فكل هذه الأسئلة تجولت بذهن راغب ولا تجد لها جوابًا.
يا له من رجل طيب القلب للخير فاعلًا دون مقابل، قد أتى لنجدة راغب مما هو فيه.
- راغب انت سرحت في إيه يا بني؟
- أنا معك يا حاج محمود.. أنا بس مندهش من اللي بتعمله لأجلي.
- أنا لسة معملتش حاجة يا ابني، مش عايز تعرف إيه المشروع اللي انا جايلك عشانه ولا ما عايزش تشتغل ولا إيه؟
- لا طبعًا، عايز اشتغل بس !!!!!
- ما بسش أنا عارف انت عايز تقول ايه يا راغب، اسمعني الأول لغاية الآخر وبعدين ابقى اتكلم.
أومأ راغب برأسه موافقًا منصتًا لكلامه.
- أنا عندي محل كبير في واجهة البيت مبستخدموش في حاجة ومافيهوش غير شوية كراكيب قديمة.. وبما إنك ليك في شغل المطاعم بحكم ان كان عندكوا مطعم في حلب للأكل السوري.. إيه رأيك تفتح فيه مطعم للأكل السوري؟ الناس هنا بتحب الأكل السوري جدًا.. وهينجح إن شاء الله.. وكمان مفيش

مطاعم أكل سوري قريبة من هنا.
يستمع راغب لكلام الحاج محمود متعجبًا من عقليته؛ فهو ذو عقلية استثمارية جيدة؛ ففي يوم وليلة فاجأه بفكرة مشروع رائعة كهذه لكنها تحتاج لرأس مال. لكن كيف يفكر هذا الرجل؛ فهو ذو قلب كبير، فَمن يفكر بغيره بهذه الطريقة في هذه الأيام؟! ويوليه كل هذا الاهتمام من تفكيره فهل هذا الرجل من عالمنا؟ هو ملاك أم بشر مثلنا؟ وعلى الجانب الآخر، راغب شاب طيب القلب لا يستأهل كل ما حدث له في هذه الدنيا فقد شاهد في دنياه ما يشيب له الشباب رغم ذلك، تحمل وظل متماسكًا حتى لاقى الرجل الذي أتى له نجدة من الله عز وجل، ومكافأة له على ما قاساه وعلى صبره وتمسكه بالأمل؛ فمن محمود حظه مقابلته بهذا الوقت.
رد راغب قائلًا:
- بس أنا ما معي شيء لأشتري الأدوات اللازمة للمطعم... أو حتى لأتأجر منك ها المحل... فكل هاد يحتاج إلى رأس مال وأنا مقحط كما تعلم ياعم محمود.
ابتسم الحاج محمود ابتسامته الصافية المعهودة.
- ما تحملش هم أي حاجة يا راغب بإذن الله هدبر لك المبلغ اللي انت محتاجه عشان تجهز المطعم، فكر انت بس كدا، وشوف إيه المعدات والحاجات اللي هتحتاجها والأدوات لزوم المطعم.. واكتبها في ورقة وإن شاء الله في أقرب وقت نروح أنا وانت نشتريها، اتفقنا؟
يبتسم راغب وعيناه تدمعان فهذه هي الابتسامة الباكية، فمن سعادته لسماع كلام الحاج محمود، فهو لا يصدق ما يسمعه، كأنه يعيش حلمًا جميلًا؛ فما يقوله هذا الرجل الطيب سَيُحدِث تغييرًا جذريًا في حياة راغب الذي تعوّد على

اللون الأسود في حياته، بدأ يرى اللون الأبيض بها منذ ظهور هذا الرجل الطيب بحياته فجأة، ابتسم راغب ابتسامة شاكرة باكية وقال:
- أنا مو عارف أقولك ايه... أنت عم تعمل معي أشياء لا يفعلها إلا الوالد لولده.. فالشكر لا يكفيك حقك.
- ولا تشكرني ولا حاجة يا راغب انت زي ابني أحمد الله يرحمه.
- الله يرحمه.
- وانت يا ابني اللي شوفته واللي حصل معاك في حياتك القصيرة دي.. مش قليل ولازم أساعدك.. وكل واحد عربي واجب عليه يساعد اخواته السوريين.. وربنا هيعوضكوا عن اللي حصل بإذن الله، وهييجي يوم ترجعوا فيه بلدكوا وتعمروها تاني.
- إن شاء الله يا عم محمود.. يسمع من بوقك ربنا.. وربنا يكتر من أمثالك يا عم محمود يا جميل.
تذكر راغب حنان والده وأمه، حينما كانا يحتضنانه في حياتهما، فانفجرت عيناه بسيل من الدموع لتغرق خديه، ثم انتفض نحو الحاج محمود فاتحًا ذراعيه يحتضنه كالطائر فاردًا جناحيه ليُحلق، فاستقبله الآخر فاتحًا ذراعيه مبتسمًا: ما تعيطش، امسح دموعك دي، وقبل أن يكمل كلامه إذا بطرق هادئ على الباب.
- وادي الفطار جه كمان أهو، قوم هاته.
قفز راغب من مكانه ليفتح الباب قبل أن يكمل الحاج محمود جملته، فتح راغب الباب ليجد دينا ابنة الحاج محمود التي لم يكن يعرف اسمها بعد، إذ هي كالقمر في طلتها، التقت أعينهما معًا في لحظةٍ أراد كلٌ منهما أن تطول أكثر،

لكن راغب سرعان ما وضع عينيه على الأرض خجلًا وأدبًا، ثم بصوت عذب خافت قالت:

- الفطار.

تناول راغب منها صينية الفطار دون أن يرفع عينيه، ثم دخل وترك الباب مفتوحًا وصعدت الأخرى إلى الدور العلوي.

تناولا وجبة الإفطار، ثم احتسيا كوبين من الشاي الساخن.

وظلا يتحدثان ويضحكان، وعرف كلٌ منهما أكثر عن الآخر.

ارتاح الحاج محمود لراغب فُخُلق راغب يضفو على شخصيته وعلى أسلوبه في الحديث؛ فهو شاب ذو خُلق وتربية محمود ة

وصالحة، توطدت العلاقة بين الاثنين يومًا بعد يوم.

****

مَرّ أسبوع على استضافة الحاج محمود لراغب في بيته، دوَّن راغب ما يحتاجه من أدوات ومعدات لافتتاح مطعم للطعام السوري، لكنه لم يدون كل ما يحتاجه، وكان يدون أرخص الأدوات ثمنًا، أما الأدوات باهظة الثمن بعض الشيء، كان لا يكتبها، وقد لاحظ الحاج محمود هذا فكان رجلًا ذكيًا فطنًا وعطوفًا.

ذهبا معًا لشراء مُعدات المطعم من القاهرة حيث يتوفر بها كل ما يحتاجونه، وبعد أن أتم راغب شراء ما دوّنه على ورقته أخذ الحاج محمود يختار بعض الآلات والمُعدات التي لم يكتبها راغب لغلاء ثمنها بعض الشيء، وعلى حد علم الحاج محمود القليل فيما يخص المطاعم من أدوات ومعدات لإنشاء مطعم جيد، كان يرفض راغب بشدة شراء هذه المعدات رغم أهميتها للمطعم؛ لأن الحاج محمود هو من يتكفل بكل هذا، لكن الحاج محمود لم يعطه بالًا أو أذنًا ولم يأبه به.

****

- مساء الخير يا حاج.
- مساء الخير يا حاجة.
- عايزة أتكلم معاك في موضوع كدا.
- اتكلمي يا حاجة.
- أنا مستغربة الطريقة اللي بتساعد بيها راغب، وقوفك جمبه بالشكل دا.. رغم انك متعرفوش إلا من أسبوع بس.
صمت الحاج محمود لثوانٍ ثم قال:
- بصي يا صفية.. الخير عمره ما بيخسر واللي بيفتح باب خير ربنا بيفتحله سبعين باب خير.. راغب أنا استجدعته وعجبني فيه احترامه وأدبه فكرني بابني أحمد.. وبكرا تشوفي، وأكيد أنا مش هدخل بيتي أي حد يعني؟! وكمان احنا من واجبنا نساعد واحد زيه احنا عرب ولازم نساعد بعض.. مش كفاية اللي حصله هو واللي زيه هنبقى احنا والزمن عليهم.
انتهت كلماته بصوت حزين كاد أن يبكي وهو يتفوه بها، ثم ردت عليه الحاجة صفية قائلة:
- فعلًا عندك حق ربنا يقوينا على فعل الخير.
وفي هذه اللحظات أتت دينا من الكلية، ألقت التحية على والديها ثم دخلت إلى غرفتها، لتُبدل ملابسها وتستريح.

****

مر أسبوع ونصف الأسبوع في توضيب المطعم وتجهيزه، من تنظيف للمحل وتجديد وتجهيز الأدوات والمعدات اللازمة.
فكان يريد أن يظهر المطعم بمظهر جيد ويليق بمكان لتناول الطعام؛ فقد صرف مبلغًا وقدره لافتتاح هذا المطعم لراغب، فقد وصل حبه للخير أعلى درجاته.
فهو الآن فعل ما عليه فعله أما الآتي فهو يعتمد على مهارة راغب في إعداد الطعام وجودة واجباته التي سيعدها وأسلوبه وعمله، أصر راغب على تسمية المطعم باسم الحاج محمود فكان اسمه:

《مطعم الحاج محمود للأكل السوري》

فإعداد الطعام السوري هو ما يتقنه راغب ولا يتقن عمل غير هذا؛ فقد تعلمها عن والده عابد الذي توفي بقصف حلب، فكان ماهرًا جدًا في عمله هذا وقد تعلم راغب كل أسرار هذه المهنة من خلال عمله مع والده في مطعمهم، والده الذي نقل له كل خبراته في هذا المجال الذي أحبه راغب منذ صغره.
الطعام السوري له مذاقه الخاص وطابعه المميز الذي يشتهيه المصريون بل يعشقونه، أحبت الناس راغب لطيبة قلبه وأدبه.
اشتهر راغب بمحمود مذاق الطعام السوري الذي يعده وجودته؛ فكيف لا وهو ابن مالك أحد أكبر المطاعم بحلب، مع مرور الوقت كثرت زبائن المطعم وزاد دخل المطعم وذاع صيته.
كان راغب يريد أن يعطي دخل المطعم كاملًا للحاج محمود ويأخذ هو مرتبًا بسيطًا، كعامل بمطعم؛ ذلك لأن الحاج محمود هو صاحب المطعم وهو من تكفل بشراء كل شيء به، وراغب لا يملك به أي شيء، أيضًا يأويه في بيته

دون مقابل حتى الآن؛ فهذا فضل كبير منه، لكن الحاج محمود أبى أن يأخذ دخل المطعم كاملًا بل أصر على أن يأخذ نصف الدخل، والنصف الآخر لراغب كشريكين.

أي إنسان هذا الذي يفعل معروفًا كهذا في هذا الزمن الذي تتصارع فيه الناس على المال والنفوذ والسلطة لأجل دنيا فانية، بها النفوس لاهية للحصول على الجاه والسلطة بأي طريقة مشروعة كانت أو غير مشروعة فلا يأبوا إذا قتلوا أو ظلموا أو شرّدوا، كل ما يهم أن يبسطوا نفوذهم ويصبحوا رقم واحد فسحقًا لغدر هذا الزمان.

****

بعد مرور عام على افتتاح المطعم ووجود راغب في بيت الحاج محمود، أصبح راغب من ضمن أفراد الأسرة الصغيرة المكونة من الحاج محمود وزوجته صفية وابنتهما دينا.

فكان الحاج محمود وزوجته يعاملانه كابنٍ لهما، فقط استطاع أن يملأ الفراغ الذي تركه ابنهما أحمد بعد وفاته، بروحه الجميلة المرحة المهذبة، توطدت العلاقة بينهما أكثر وأكثر، فلا يكتمل جمعهما إلا به، وكان يشاركهما الكثير من الموائد، فكان خير الشباب، أصلًا وأدبًا ووسامةً؛ فهو يمتاز بالوسامه والبشاشة فكانت بشرته بيضاء اللون وعيناه عسليتان وشعره أسود ناعمًا.

****

بدأت تتفاقم مشاعر حب يحكمها الاحترام بين راغب ودينا، فكثيرًا ما تلاقت الأعين، وتبادلا نظرات الإعجاب أكثر من مرة، لكن نظرات صامتة فلم يحدث أحدهما الآخر عما يحسه نحو الآخر.

وقد زاد إعجاب دينا بشخصية راغب منذ موقف (المعاكسة)، حيث كانت دينا عائدة من الكلية ومرهقة في أحد الأيام، وأثناء مرورها من أمام المطعم، واتجاهها إلى مدخل البيت، قام أحد زبائن المطعم من الشباب مِمَّن ينتظرون واجباتهم بمغازلتها، بألفاظ خارجة وغمزات ولمزات، فأسرعت هي خطواتها، سمع راغب ما قاله هذا الشاب من مغازلة لدينا، فاندفع نحو هذا الشاب قائلًا بصوت حاد قاطع غاضب، وممسكًا بكتف هذا الشاب:

- أيش أتقول أنتا... هاي أختي.

تفاجأ هذا الشاب، وكاد أن يتحدث حتى قاطعه أحد أصدقائه مسرعًا ليهدئ الموقف:

- مكانش يعرف يا راغب والله حقك عليا أنا.

فكان الأخير على معرفة براغب، وزبون دائم للمطعم.

- طب تاني مرة تيجي هنا تقف باحترامك.

فقال الشاب الذي غازل دينا، بصوت غامض:

- ما خلاص بقى يا عم راغب هاتلنا الأكل بقى.

- مافيش أكل ليك هنا، وماعنتش تيجي هنا.

ارتفع صوت راغب والشاب، وتجمعت الناس، وفضت المشكلة خلال لحظات، ورحل الشاب.

كل ما حدث من مشاحنات ومشادات وارتفاع الأصوات بين راغب

والشاب، سمعته دينا وهي واقفة خلف بوابة البيت، وقفت قلقة خائفة أن يحدث مكروهًا لراغب بسببها، أو بتعبير أدق خافت أن يحدث له مكروهًا بسبب خوفه عليها وعدم تحمله سماع كلمات مبتذلة من شاب منعدم الأخلاق تجاه دينا، يمكن أن تقول أنه بفعل الحب أحيانًا، لكن هذا ما كان يتوجب على راغب فعله في مثل هذا الموقف بدافع أنها ابنة الحاج محمود، صاحب الفضل عليه بعد الله على ما هو فيه بدافع الخير والجدعنة التي لا تترجم إلى أي لغة سوى العربية.

فرحت دينا لما فعله راغب مع هذا الشاب لأجلها؛ فقد زادت مكانته عندها وبدأ يحجز حيزًا من قلبها لأجله هو فقط، صعدت دينا مسرعة إلى شقتهم، فما لبثت أن دخلت حتى سألها والدها مردفًا:

- إيه الصوت العالي والزعيق اللي تحت دا يا دينا؟

- أيوا يا دينا أنا سامعة صوت راغب وهو بيزعق طمنينا.

قصت ما حدث في الأسفل لوالدها ووالدتها، وفي عينيها بريق الفرحة، مما فعله راغب، وبدت ملامح الإعجاب على وجه الحاج محمود والحاجة صفية بما فعله راغب، فشعرا تجاهه بالأمان أكثر؛ فمثل هذه المواقف البسيطة هي التي تُظهِر معدن الرجال، وهذه المواقف كثيرًا ما تسعد البنات؛ حيث تشعر بالأمان والاطمئنان تجاه هذا الشخص الذي يدافع عنها، وحبذا عندما يكون قريبًا منك:

- طب هو حصل له حاجة؟

- لا يا بابا ما حصلوش حاجة الحمد لله.

فرد الوالدان في صوت واحد:

- الحمد لله.
ثم أكملت الحاجة صفية مردفةً:
- الشباب عديمي الأخلاق كتروا قوي اليومين دول.. ربنا يبعد عنه السوء.
- طب أنا داخلة أغير هدومي وأستريح شوية.
دخلت دينا ثم استلقت على سريرها، تتذكر ما حدث في الأسفل كأنه يدور أمامها؛ فقد أصبح راغب مرغوبًا به وهو الفارس المنتظر؛ فهو كما أرادته بأحلامها، وظلت تسبح بأحلام اليقظة، حتى أيقظها نداء أمها لتجهز الغداء.

****

بدأت تظهر على الحاج محمود أعراض الإعياء والمرض وصار لا يشتهي الطعام، وكثيرًا يشعر بالقيء والغثيان والدوخة، وأيضًا يجد صعوبة في إفراز البول.

في صباح يوم من الأيام أثناء تناول وجبة الإفطار فجأة سقط من أعلى الكرسي على الأرض فأسرعتا نحوه زوجته وابنته، سرعان ما أتى راغب، بعد أن نادته دينا من شرفة البيت المطلة على الشارع، فصعد مسرعًا إليهم، وصى أحد جيرانهم يدعى عم شعبان، طلب منه إغلاق المطعم، تهافت الناس والجيران حول بوابة البيت منهم من يتساءل "إيه اللي حصل؟" ومنهم مَن يقول ويهز رأسه حزنًا وتعاطفًا: "ألف سلامة... لا حول ولا قوة إلا بالله" وآخرون يقولون: "ربنا يسترها ويقوم بالسلامة إن شاء الله".

****

تم فحصه سريعًا لإنقاذه ومعرفة ما هي علته، صرخ الطبيب في وجوههم قلقًا قائلًا:

- الحاج عنده فشل كلوي حاد ولازم نعمله غسيل كلوي دلوقت.

صُدِمت الأسرة لِما سمعته من الطبيب.

- اعمله غسيل حالًا يا دكتور.

فنادى الطبيب في المُمرضين مردفًا:

- انقلوه على وحدة الغسيل الكلوي حالًا.

أجهشتا دينا وأمها في البكاء، من هول المصيبة التي حلت بهما، أما راغب فقد ذهب إلى عالم آخر؛ فالرجل الوحيد الذي وقف بجانبه في هذه الحياة، هو الآن على فراش المرض، وأي مرض، إنه مرض لعين؛ فهو بمثابة عدّ تنازلي لنهاية حياة المريض عندما يُصاب به، فتذكر حديث الحاج محمود حينما قال له: (المؤمن مصاب يا ابني، وقال سيدنا **"محمد"** إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه).

هونت هذه الجُمَل على راغب بعض الشيء، أراد راغب أن يخفف من روع دينا ووالدتها قائلًا:

- ما تخافيش يا أمي عمي محمود هيبقى كويس إن شاء الله ما تقلقيش.

ذهب راغب مسرعًا، ليدفع ثمن جلسة الغسيل الكلوي، التي سيجريها الطبيب للحاج محمود، التي كان ثمنها مائتي جنيه، حيث لا تبدأ أي جلسة غسيل إلا بعد أن يُدفَع ثمنها، كما قال له الطبيب.

ظل الحاج محمود بالمستشفى ثلاثة أيام حتى استرد جزءًا من عافيته، أراد أن يغادر المشفى ويعود إلى البيت؛ فلم يعد يطيق رائحة المشفى وجوه، وصوت المرضى، انزعج جدًا من مكوثه بالمشفى.

عادوا به إلى البيت بعد أن أخذوا أمرًا من الطبيب، بأن يُجري الحاج محمود ثلاث جلسات غسيل كلوي بالأسبوع.

****

مرّ شهرين على هذا الحال، منذ أن وطأت قدمي الحاج محمود المشفى وخروجه منه.

مرّ الشهران ذهابًا وإيابًا إلى المشفى ثلاث مرات في الأسبوع، وحالته الصحية تتدهور يومًا بعد يوم، كان راغب ينظر إلى الحاج محمود وهو في فراش المرض، ويقول لنفسه:

- أنا لازم أساعد عمي محمود بأي طريقة لازم أعمل أي حاجة عشان يخف، ما ينفعش اتفرج عليه وهو بيموت، الراجل دا مهما عملت مهقدرش أرد ليه فضله عليا ولا حتى جزء منه مهما عملت، ولو في إيدي حاجة أعملهاله هعملهاله من غير تردد.

****

في صباح أول أيام الأسبوع وهو يوم السبت، ولا بد أن يذهبوا إلى المشفى ليُجروا جلسة غسيل كلوي للحاج محمود ، لكنه لم يستيقظ مبكرًا كعادته، ذهبت الحاجة صفية لتوقظه من النوم لكنه لم يستيقظ فأخذت تهز كتفه مرددة:

- إصحى يا أبو أحمد يلا عشان الجلسة النهاردا... يلا عشان نروح ونيجي بدري.

فلم يُلبِّ أيضًا ولم يستيقظ قط، يعتريها القلق والذهول صارخة تبكي:

- الحقي أبوكي يا دينا.

وتمزقها نار القلق.

أتت دينا إلى الغرفة مسرعة مُهرولة فَزِعة، لا تدري ماذا حل بوالدها، أتوفي أم أنها غيبوبة كلوية، ثم أسرعت بنداء راغب صارخةً مُردِفة.

- إلحق بابا يا راغب.

وجدوه ما زال يتنفس فأسرعوا بنقله إلى المشفى دون انتظار سيارة الإسعاف، التي ستتأخر كعادتها.

وصلوا إلى المشفى ثم دلفوا داخله مُسرعين حتى يُنقذوا الحاج محمود المسكين.

****

خرج الطبيب من العناية المركزة مُحبطًا، نظروا إليه ثلاثتهم ويدهم على قلوبهم المرتجفة من الخوف والقلق، فهم في موقف لا يُحسدون عليه إطلاقًا، أسرعوا نحوه قائلين ثلاثتهم في نفس واحد:

((طمنّا يا دكتور))

فأجابهم مردفًا:

- ما تقلقوش دي غيبوبة كلوية.. بس الكلى عند الحاج ماعادتش مستحملة غسيل.. وهيحتاج زراعة كلى.. في أسرع وقت ممكن.

في هذه اللحظة عرف راغب ما عليه فعله، لأجل إنقاذ الحاج محمود ، الماكث بإحدى غرف المشفى بين الحياة والموت، فبادر قائلًا:

- طب إيه المطلوب دلوقتي، يا دكتور.

- أولًا عايزين مُتبرع.. ثانيًا العملية هتكون مُكلِفة.

- المتبرع جاهز يا دكتور.. عايز أعرف إيه المطلوب بالظبط عشان أتبرعله.

كل هذا ودينا وأمها مَذهولتين مما يسمعانه من راغب، لا يدرون ماذا يقولون لراغب، يشكرانه أم ينهيانه عما هو عازم على فعله لأجل إنقاذ الحاج محمود :

- ما فيش.. أول حاجة عينة دم، عشان نشوف هينفع تتبرعله ولا لا، وفي شوية فحوصات لازم تتعمل.

رد عليه الأخير بكلمات واثقة:

- تقدر تاخد مني العينة دلوقتي يا دكتور.

- لأ المستشفى هنا مافيهوش إمكانيات كافية ولا أجهزة لعمليات زي دي....

بس العملية هتكلفكم حوالي.. خمسة وأربعين ألف جنيه.

نظر راغب إلى الحاجة صفية ودينا، نظرة تخفيف وطمأنينة، ذهب راغب إلى المنزل ليدبر المبلغ فوجد كل ما معه من المال يبلغ ما يقارب نصف المبلغ المطلوب لإجراء العملية، أخذ ماله وذهب به إلى الحاجة صفية ليعطيه لها.
- السلام عليكم ورحمة الله.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته... اتفضل يا راغب.

قام راغب بمصافحة الحاجة صفية، ثم مد يده نحوها وبها مبلغ من المال قائلًا:
- اتفضلي المبلغ دا يا أمي.
نظرت له باندهاش وعينين مفتوحتين عن آخرهما يملأهما الودّ، قائلة:
- خلي فلوسك معاك يا بني... ربك هيدبرها إن شاء الله وكفاية اللي انت هتعمله.. دا جميل هنشيله فوق راسنا طووول العمر.
رَدّ عليها بكلمات واثقة مردفًا:
- فلوسي هيا فلوسكم.. دا مايجيش نقطة في بحر أفضال عمي محمود عليا.. وعمري ما هقدر أوفيه حقه عليا.

في هذا الوقت أحست الحاجة صفية أن ابنها أحمد لم يمت، لمعت عيناها ببريق الفرح، ودينا واقفة بجوارهما تتفرج على هذا الموقف النبيل من شاب نبيل قل وجوده في هذه الدنيا؛ فهذه هي النتائج المحتومة لزراعة الخير؛ فمن يزرع الخير لا يجني سوى الخير.

- ربنا يخليك يا بني ومايحرمناش منك يا رب.
خلال ما يقل عن أسبوع استطاعوا أن يدبروا باقي المبلغ، ثم ذهبوا إلى المشفى الذي يوجد بالعنوان الذي أعطاه لهم الطبيب، فور وصولهم قام راغب بالفحوصات اللازمة والإجراءات المطلوبة، لإتمام عملية الزراعة بأسرع وقت ممكن.

****

كانت فصيلة دم راغب مطابقة لفصيلة دم الحاج محمود ، وتم كل شيء بسلاسة وكما ينبغي، دخلا غرفة العمليات معًا، وتصحبهما دعوات الحاجة صفية ودينا.

((استرها يا رب.. يا رب جيب العواقب سليمة يا رب))

وقفتا الاثنتان أمام غرفة العمليات، يعتصرهما القلق وتتلاعب الأفكار بعقليهما اللذين كان يملأُهما القلق.

****

تمت العملية بنجاح وخرج الاثنان من غرفة العمليات تحت تأثير "البنج"، ودينا تحدث نفسها قائلة:

- ازاي راغب يتبرع لبابا بكليته بالسهولة دي... ومن غير ما يتردد ولو للحظة واحدة... أي جدعنة دي؟ وأي حب دا؟ وأي طيبة دي؟ اللي تخلي واحد يتبرع بكليته لواحد تاني، بدافع رد الجميل!!

ازدادت قيمة راغب وارتفعت لدى دينا؛ فأصبحت تستغل كل فرصة للحديث مع راغب، وسرعان ما استرد الحاج محمود عافيته وأصبحت حالته الصحية أفضل بكثير.

حكت له الحاجة صفية ما فعله راغب لأجل إنقاذ حياته وكيف وقف بجانبهم في مثل هذه الظروف، وكأنها تحكي له قصة بطل خارق، فكان هذا نِعم رد الجميل، فَفعل الخير يعود إلى صاحبه بخير منه عشرات المرات، لم يبدِ الحاج محمود الاندهاش مما يسمعه، فهذا المُتوقع من شاب بأخلاق راغب، لكنه أبدى أعجابه الشديد بأخلاقه النبيلة، موقفه العظيم، لم يجد الحاج محمود مايفعله ليشكر راغب على ما فعله، لإنقاذ حياته سوى شيء واحد.

****

ذهب الحاج محمود إلى الجهات المختصة ليبحث كيف يقوم بعمل أوراق إثبات شخصية لراغب، وقد سهل الأمر القانون الجديد الذي ينص على معاملة السوريين كمصريين، فاجأ الحاج محمود راغب بهذا الشيء الذي لم يتوقعه، وهو أن يجري له أوراق إثبات شخصية.

فاستطاعا الحاج محمود وراغب، إنهاء الأوراق في وقت وجيز، كان هذا شيء جيد جدًا بالنسبة لراغب، أن يكون له أوراق إثبات شخصية، التي ستسهل عليه أشياء كثيرة في العمل والذهاب لأي مكان.

****

وفي صباح يوم من الأيام، وراغب جالس بجوار الحاج محمود ، أخرج الحاج محمود ورقة مطوية من جيبه، ثم فتحها قائلًا لراغب بنبرة جادة:

- اتفضل يا راغب امضي هنا على الورقة دي.

- ورقة ايه دي يا عم محمود ؟

- دي ورقة هتثبت ملكيتك للمطعم.

رد راغب بنبرة استفهامية رافضة، مردفًا:

- ازاي؟ المطعم ملكك انت يا عم محمود .. لا يمكن يا عم محمود .

- أنا عارف إنه ملكي.. وانا مصمم إني أكتبه باسمك.

لمعت عينا راغب من الفرحة متسائلًا إلى متى سيغرقه هذا الرجل بأفضاله؟ وَقّع راغب على العقد، وهو لا يصدق ما يحدث، أراد أن يقول شيئًا لكنه كان مترددًا وخجلًا، بدا ذلك عليه، وأحس بذلك أيضًا الحاج محمود ، ظاهرًا في عينيه أنه يريد قول شيء، فسبقه الحاج محمود قائلًا:

- انت عايز تقول حاجة يا راغب؟

- لا ماعايزش أقول حاجة يا عمي.. بالإذن أنا بقى.. هنزل المطعم.

******

مرت الأيام والليالي، ولم يقل راغب ما يريد قوله فما زال مترددًا، ثم في يوم، عزم راغب أن يقول للحاج محمود ما ينبغي أن يقوله، ويفاتحه في الموضوع الذي يشغله من فترة.

صعد راغب السلم ولأول مرة بخطوات مترددة وغير واثقة،

فتحت له دينا الباب، وتلاقت الأعين المشتاقة لرؤية بعضها البعض، فما لبِثَ حتى فاجأه صوت الحاج محمود من الداخل مردفًا:

اتفضل يا راغب... تعالى.

دخل راغب وجلس بجوار الحاج محمود ، ودار الحديث بينهما، بعدما تصافحا.

- ازيك يا عم محمود ... انت عامل ايه؟

- تمام الحمد لله يا راغب.

- يستاهل الحمد يا عمي.

- انت عامل ايه... والشغل إيه أخباره معاك؟

- تمام الحمد لله... الشغل ماشي تمام.

- دينا.

- نعم يا بابا.

- جيبى كوبايتين عصير.

- حاضر يا بابا.

- مالوش لزوم التعب يا عمي... هو أنا غريب؟

- دي حاجة بسيطة... ولا تعب ولا حاجة.

سادت لحظات من الصمت، لكن بدا ظاهرًا على وجه وعين راغب أنه يريد قول شيء ما، ولاحظ هذا الحاج محمود ، فقطع هذا الصمت قائلًا:

- أنا حاسس انك عايز تقول حاجة يا راغب.. قول ما تتكسفش، دا انت ابني اللي أنا مخلفتوش.
ابتسم قائلًا بعدم ثقة:
- الصراحة يا عم محمود .. أنا عايز أطلب منك إيد دينا بنتك.
تفاجأ الحاج محمود بعض الشيء لعدم توقعه مثل هذا الطلب، لكنه سرعان ما ابتسم، ولم يتردد قائلًا:
- وانا موافق يا راغب.
سعد راغب وفرح فرحًا شديدًا.
نادى الحاج محمود على دينا التي سمعت الحوار الذي دار بين والدها وبين راغب وأتت أيضًا الحاجة صفية، وقال لدينا:
- راغب طلب إيدك مني وانا وافقت، انتي موافقة ولا إيه؟
نظرت دينا لراغب، الذي طالما رأت فيه فارس أحلامها،
ثم هزت رأسها موافقة، وهي تنظر للأسفل خجلًا من الموقف.
- طب نقرأ الفاتحة.
رفعوا أكفهم جميعًا وقرأوا الفاتحة، مصاحبةً لها نظرات محبة وخجل وفرح بين دينا وراغب، فما أسعدها وأبهاها من ليلة، فلم يجدوا أفضل من راغب زوجًا لابنتهم، فكان راغب شابًا متدينًا، ومؤدبًا، وكما أصبح جزءًا من العائلة، فكانوا يُعاملونه كابن لهم، وهو يعاملهم كوالديه، الذي عوضه الله بهما بعد وفاة والديه تحت أنقاض حلب، فكان الحاج محمود كالشمس التي أتت بعد ليلٍ طويل، وهو الأمل الأخير الذي طالما انتظره راغب.

أفاق راغب أخيرًا على صوت المأذون وهو يقول:
- أترغب في الزواج من السيدة" دينا محمود أحمد عطية "
أجاب وهو مُمسك بيد الحاج محمود ، بعينين تلمعان كالنجوم والبسمة تشق وجهه:
- نعم أرغب..

****

فلا تفقد الأمل ما دمت حيًا تلتقط أنفاسك واحلم بفجرٍ جديد ناصع البياض مهما كانت الليلة حالكة السواد، فتمسك بالأمل حتى آخر أنفاسك؛ فلا تيأس من رحمة الله، فالله رحيم كريم بعباده، فعندما تجد نفسك وسط ظُلمات الحياة وتشعر أن الدنيا تكتم أنفاسك فمد يدك إلى الله عز وجل وكن على يقين أن الله سيمد لكَ يد العون، فإن بعد العسر يسرًا، وسيفرج الله عنك همك وكربك وَسَتفتح لك أبواب السماوات ما دمت بالله مؤمنًا، سيرزقك الله بفضله من حيث لا تحتسب؛ فالله قادر على كل شيء، فعسى أن تكون لحظة اليأس التي تشرف على اليأس بها من كل شيء تكون هي بداية الأمل والنجاح.

ألم اليأس

في ليلة كانت سماؤها عابسة والسحاب قاتمًا، مبشرًا بهطول أمطار، لكنها لم تمطر بعد، والرياح كانت شديدة بعض الشيء.

عاد سليم إلى بيته بعد يوم عمل طويل وشاق، ووجهه عابسًا من أعباء الحياة والعمل، حيث يعمل كمُمرض بأحد المستشفيات الخاصة، دَخل بيته بوجه قاتم، لكن سرعان ما ابتسم هذا الوجه وتهلل عندما رأى طفليه "إسلام" و"حسام" يركضان نحوه ليستقبلاه، فاستقبلهما الأخير فاتحًا ذراعيه باشتياق وتلهف، كأنه هو مَن يريد هذا الاحتضان ويحتاج إليه أكثر منهما.

- حبايب بابا انتوا عاملين ايه؟

- انت اتأخرت ليه النهاردا يا بابا؟

- معلش يا حبيبي.. الشغل كان كتير قوي النهاردا.

ثم ذهب إلى غرفته ليبدل ملابسه، بعدما ألقى التحية على زوجته "أسماء" التي أسرعت لتدفئ الطعام الذي بَرُدَ أثناء انتظارهم له حتى يعود من العمل، لكنه تأخر اليوم على غير عادته، جلس يتناول الطعام مع عائلته الصغيرة، المُكونة من أربعة أفراد، دار بينه وبين زوجته حوار صغير، فسألته قائلة:

- انت اتأخرت النهاردا في الشغل عن كل يوم يعني؟!

- حصلت حادثة كبيرة النهاردا.. وكان فيها ناس مصابين كتير وفي ناس ماتت.. وزميلي اتأخر النهاردا.. وما كانش ينفع أسيب زمايلي وآجي.

أومأت برأسها متفهمة ما حدث، ودار بينهما حديث حول مصاريف البيت والمرتب

وارتفاع الأسعار، حتى انتهوا من تناول الطعام،
جلسوا يستمعون إلى التلفاز ككل يوم، لكن اليوم بدون سليم، الذي شعر بالتعب والإرهاق، بعد يوم عملٍ طويل وشاق، فلم يشعر بنفسهِ إلا وهو على سريره، مُمدّد الجسد؛ فما لبث أن ذهب في النوم سريعًا، لم يمكث الأطفال ووالدتهم أمام التلفاز كثيرًا، فسرعان ما غاص الأطفال في النوم، من لَعِب النهار واللهو طوال اليوم، حملتهم والدتهم وأدخلتهم إلى غرفة نومهم.

****

استيقظت أسماء من نومها على صوت في محيط البيت؛ فقد كان نومها خفيفًا، فإذا صدر صوتٌ ما تقلق في نومها وتستيقظ سريعًا، بدأ الصوت يزداد مصاحبًا بحركة في أحد جوانب البيت، فقد شعرت بها، ازداد توترها وقلقها فَشكّت أن يكون هناك لصوص بالخارج، كل هذا وهي مستلقية على الفراش، أيقظت سليم في عجلة من أمرها، هزت كتفه وتقول بصوت خافت وكلمات متكررة.

- اصحى يا سليم... سليم..

قام مفزوعًا من نومه قائلًا لها بصوت فاتر وهو ينظر إلى هاتفه:

- بتصحيني ليه دلوقتي... الساعة لسا اتنين الصبح.

اسمع كدا... وطي صوتك... في صوت برا..

أنصت سليم وتأكد أنه هناك صوت بالخارج وحركة غريبة في المنزل، استقام من مكانه وذهب بكل هدوء إلى إحدى زوايا الغرفة والتقط بندقية، كان قد سبق أن اشتراها لمثل هذه المواقف، ثم انطلق يتحسس المنزل، حتى أحس بوجود أشخاص بالمنزل، أضاء الأنوار، فوجدهم ثلاثة لصوص مُلثَمين، حاولوا مُسرعين أن يُهاجموه رغم تحذيره لهم من الاقتراب منه، لكنه سرعان ما أطلق عليهم الرصاص دفاعًا عن نفسه بعدما كانوا يهاجمونه، فسقط الثلاثة جثثًا هامدة.

****

جاءت الشرطة وملأت المكان، عاينت الشرطة مكان الجريمة، وتم نقل جثث الثلاثة لصوص إلى الطبيب الشرعي لفحصها، وأخذوا سليم للتحقيق معه، وسرعان ما بدأت التحقيقات في الجريمة، وأصبحت قضية، فهي من وجهة نظر الشرطة لم تكن مجرد حادث سرقة عادي بل أصبحت جريمة قُتِل فيها ثلاثة أشخاص، بدأ التحقيق مع سليم، فلم يُرد شيئًا، ولم يقُل غير الذي حدث بالفعل، وتم أخذ أقوال بعض الجيران حول سليم وعلاقاته معهم وهل كانوا يلاحظون عليه شيئًا غريبًا أم ماذا؟

صعد الأمر للقضاء؛ لأنه لم يكن حادث سرقة بسيطًا بل قُتِلَ به ثلاثة أشخاص فلا بد أن يحكم به القضاء.

أثبتت التحقيقات أن الثلاثة لصوص أخوة، وهم من جيران سليم في الحي.

كانت القضية في بدايتها تسير في صالح سليم وأنه كان في حالة الدفاع عن النفس والجميع كان متعاطفًا معه، ولكن حدث ما لم يكن مُتَوقَعًا وما لم يكن في الحسبان، تغيرت مُجريات القضية وتغير كل شيء بعد ما ظهر كلام جديد حول القضية، حيث أسفرت تحقيقات النيابة في القضية، أثناء استجواب الجيران، أن الأخوة الثلاثة كانوا في خناق دائم مع جارهم سليم ودارت بينهم بعض المشاكل في الفترة الأخيرة.

بطبيعة رجال الشرطة، وطبيعة عملهم بدأوا في الاستنتاجات والتفسيرات المنطقية وشبه المنطقية، وجمع الأدلة وربط الأحداث بعضها ببعض، ثم خرجوا بسيناريو عبقري ومحبوك، وأصبح سليم مُدانًا من وجهة نظرهم، رغم أن معاينة مكان الجريمة أسفرت عن وجود آثار لاقتحام البيت.

وهذا السيناريو هو أن سليم بعدما حدث بينه وبين الثلاثة من مشاكل وصلت إلى أشدها، قرر سليم أن يضع حدًا لهم؛ فقام بدعوتهم إلى بيته لحل الأمور بشكل ودي، فذهبوا ثلاثتهم إلى بيته ثم غدر بهم وقتلهم غدرًا، وهذا كله لكي يقول أنهم حاولوا سرقته

فقتلهم دفاعًا عن نفسه، وعن أسرته، فيخرُج من القضية وليس عليه أي إدانة أو ذنب، ويبقى في ذات الوقت قتلهم وتخلص منهم، وبهذا يكون أسقط عصفورين بحجرٍ واحد.
تغيرت المجريات تمامًا وتحولت الآراء من أنه بريء، وأنه كان في حالة الدفاع عن النفس إلى قاتل، وهو مَن استدرجهم إلى بيته ليقتلهم غدرًا، وبدأ الموقف يتأزم على سليم والجميع أصبح ينظر إليه نظرة المجرم وسيُحكَم عليه بالمؤبد، كما قال له المحامي "رمضان صالح " الذي وكلته له زوجته أسماء، أنه يستطيع تخفيف الحكم من إعدام إلى مؤبد، والقضية انقلبت رأسًا على عَقِب.
تمُر الليالي على سليم في الحبس وكل ليلة أكثر ظلامًا من سابقتها؛ فلا يدري ماذا يحدث حوله، حيث فجأة تغيرت مجريات حياته كليًا، ففي ليلة وضحاها أصبح مجرمًا ومتهمًا لأنه يدافع عن نفسه، ولا يستطيع إيجاد دليلٍ واحد أو حتى شاهد واحد يُثبت أن الثلاثة أخوة أتوا لسرقته أو ربما لقتله، فكيف يثبت براءته؛ فقد تغير لون حياته وتغير لون كل شيء حوله من الأبيض إلى الأسود؛ فما أصعب هذا الإحساس، أن تكون بريئًا ولا تستطيع أن تثبت براءتك، وأن تعاقب على شيء لا يُعاقَب عليه أحد.
بدأ يدب اليأس في نفس سليم من إثبات براءته حتى استأثر بعقله؛ فكلما يمر عليه يوم بالسجن يزداد خوفه أن يبقى به أكثر؛ فكيف له أن يمكث وسط جدرانه السميكة بين المجرمين لمدة خمسة وعشرين عامًا؛ فينتابه الرعب والخوف من مجرد التفكير في هذا، وفي كل يوم يمر عليه وهو داخل السجن يفقد الأمل في الخروج ويزيد يأسه من إثبات براءته ويضيق عليه الخناق.
فمنذ أن أخبره المحامي أن الحكم سيتراوح ما بين عشرين وخمسة وعشرين عامًا، وليس بيده شيء يفعله أكثر من ذلك، وهوفي حالة يرثى لها، لم يعد

يطيق أي شيء في هذه الحياة، زاد خوفه بل رعبه من أن يبقى بقية حياته داخل السجن الكريه.

قرر سليم الهرب، خوفًا من المكوث في السجن باقي حياته، ثم دبر وفكر متى وكيف سينفذ هذا، وأين سيختبئ، وفي أحد الزيارات أخبر زوجته بهذا قائلًا:

- أسماء، الحل الوحيد اللي قدامي دلوقتي.. هو إن انا أهرب.

- انت بتقول إيه؟

- زي ما سمعت كدا... أنا لا يمكن أقضي حياتي كلها في السجن.

- إن شاء الله هنقدر نثبت براءتك والقاضي يحكم ببراءتك.

ضَحِك ساخرًا من حديثها ثم عاود الحديث مردفًا:

- انت ماسمعتيش المحامي قال إيه... وكل حاجة في القضية مش في صالحي.. ومش هيقدر يثبت براءتي... زي ما قلتلك أنا لازم أهرب.

- طب ازاي وإمتى وهتستخبى فين؟

- في أبعد مكان ممكن البوليس يفكر إني هستخبى فيه.

- فين يعني؟

- في البيت عندنا.

نظرت له بتعجب غير مدركة ما يقوله.

- في البيت ازاي؟

- انت نسيت السرداب اللي تحت البيت عندنا؟

- ماله السرداب؟

- هاستخبى فيه طول الفترة اللي جاية.

- سليم انت عارف انت بتقول ايه؟
- أيوا عارف... بصي بقى ياستي.. عايزك يوم الجلسة تجيبي معاك طقم عباية سودا ونقاب وتستنيني قصاد الجامع اللي في الميدان... وإن شاء الله هقدر أهرب قبل ما أركب عربية الترحيلات اللي هتاخدني على المحكمة.. وآجي آخد منك الهدوم. والبسها.. وانت تروحي الجلسة... وأنا هشوف أي مكان أقعد فيه لغاية الساعة اتناشر بالليل وبعدين آجي على البيت عشان الولاد يكونوا ناموا.
- انت متأكد انك هتعرف تهرب؟
- إن شاء الله ما تخافيش.. الأمين على طول بيسيبنى من غير كلبشات حوالي نص دقيقة قبل ما اركب عربية الترحيلات.. نفذي انت بس اللي قلتلك عليه.. ومفيش أي مخلوق يعرف.
- حاضر.
انتهت الزيارة بصوت الأمين الكريه والثقيل على أُذني سليم قائلًا:
- الزيارة انتهت.

****

أتى يوم الجلسة واستطاع سليم بالفعل أن يهرب، ركض سليم الذي ساعدته لياقته ورشاقته أن يبتعد عن أنظار أمين الشرطة الذي كان بصحبته، نظرًا لضخامة بطنه المنتفخ، فلم يعطِه سليم فرصة لطلب الدعم، اختفى سليم وسط شوارع القاهرة المزدحمة، وهو يركض دون توقف حتى وصل إلى الجامع ووجد أسماء تنتظره كما اتفق معها، أخذ منها حقيبة الملابس التي بها العباءة والنقاب، ثم انطلقت هي إلى الجلسة حتى لا يشُك أحد.

ارتدى سليم الملابس داخل مرحاض الجامع ثم خرج إلى طرق وشوارع القاهرة الواسعة التي ازدحمت بالسيارات والناس،

أتت الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل، انطلق سليم نحو منزله، هو يرتدي نقابًا فلم يتعرف عليه أحد ممن يراه، وشارعهم كان شبه خالٍ، طرقَ الباب بطريقة سبق أن اتفق مع زوجته عليها، دخل البيت بعدما تأكد أن لا يراه أحد، وما لبث حتى اتجه بالسؤال نحو زوجته بصوت هادئ قائلًا:

- الولاد ناموا؟

- آه ناموا من زمان.

- وقوليلي إيه اللي حصل النهاردا بقى؟

- الجلسة مش تمت... والبوليس جه وفتش البيت كله.

- طب جهزيلي العشا عشان جعان قوى.

- حاضر.

تناول العشاء ثم نزل إلى القبو الذي جهزته ورتبته له زوجته لكي يمكث به في الفترة القادمة، خوفًا من السجن المؤبد.

دخل إلى قبره الذي اختاره لنفسه وهو حي يرزق، ووضع نفسه داخل القبو

وقرر أن يمكث به عشرين عامًا مُنقطعًا عن العالم الخارجي، فقد استبدل السجن بسجن آخر لكنه لم يكن يدرك ذلك.

****

اتفق مع زوجته على عدم إخبار أولادهم أبدًا، وأنها ستحضر له الطعام كل يوم في القبو بعدما ينام الأطفال، وبعد ذهابهم إلى الدراسة.

ربما لم يعطِ سليم أمر القبو قدرًا كافيًا من التفكير، أو ربما لم يعطه يأسه من إثبات براءته وخوفه من السجن المؤبد الذي استولى على تفكيره فرصة للتفكير مليًا، هل قرار الهرب والاختباء في القبو قرارٌ صائبٌ أم خاطئ، قرار سيندم كثيرًا على أخذه، أم لن يندم أبدًا؟

ظل حاله هكذا لفترة جاوزت الثمانية أعوام، داخل القبو الذي وضع نفسه فيه جاهلًا مصيره، يتناول الطعام فيه، يعيش فيه، ينام فيه، هكذا مرت الثماني أعوام تشبه بعضها بعضًا؛ فلم يعد يشعر بالوقت سوى أنه يمر ببطءٍ شديد، طوال الوقت نائم يوهم نفسه وعقله أن هذا هو القرار الصحيح، والاختباء أفضل من السجن لعشرين عامًا وسط المجرمين. يا لها من حياة بائسة اختارها بنفسه لنفسه، نجح هو وزوجته أسماء بإخفاء الأمر عن أولادهما وعن الجيران ولم يعلم أو يشعر أحدٌ بشيءٍ عن هذا الأمر.

بعد مرور كل هذه الفترة قد تغيرت أشياء كثيرة، كبُر الولدان وأصبحا يفهمان ما يدور حولهما من أمور ويدركانها، وطوال الثمانية أعوام كانت إجابة أسماء واحدة عندما يسألانها عن والدهما، وهي أنه سافر للعمل بإحدى دول الخليج، فكانا يسألان عنه تارة وينسيانه تارة أخرى، ومع مرور الأعياد

والمناسبات عليها بدون وجود والدهما بجوارهما كانت كفيلة لنسيانه كثيرًا من الأحيان.
فكادوا أن ينسوا ملامحه لعدم رؤيته منذ فترة طويلة لولا نظرهم إلى صورهم بجواره عندما كانوا أطفالًا صغار.

****

في ليلة من الليالي سمع إسلام وهو الابن الأكبر صوتًا يأتي من قاع البيت، وذلك بعد منتصف الليل، لم يستمر الصوت كثيرًا وسرعان ما اختفى، لم يبالِ إسلام بهذا الصوت، ولم يعِره تفكيرًا وخلد إلى النوم.

في اليوم التالي، كان إسلام نائمًا على سريره، عند الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل، نزلت أسماء إلى القبو بالطعام لسليم بعد أن تأكدت أن أبناءها خلدوا إلى النوم، أغلقت باب القبو خلفها، إسلام كان نومه خفيفًا جدًا، فقد سمع صوت شيء يفتح ويغلق في قاع البيت، كان إسلام في شكٍ وريبة من أمره، فحاول إيقاظ أخيه الأصغر قائلًا:

- حسام.. حسام اصحى يا حسام.

استيقظ حسام وهو يسأل مردفًا:

- في إيه... في حاجة يا إسلام؟

- أنا سمعت صوت حاجة بتتفتح وتتقفل في أرضية البيت.

- ياخي نام تلاقيك كنت بتحلم ولا تهيؤات.

- لا فعلًا أنا سمعت الصوت دا... تعالى نشوف الصوت دا جه من فين.

صمت حسام للحظة ثم نظر إلى إسلام وقال له على مضضٍ منه:

- يللا بينا يا سيدي أما نشوف آخرتها معاك إيه؟

ذهب الاثنان بخطوات غير واثقة يبحثان في البيت يمينًا ويسارًا، كانا خائفين من المجهول الذي يبحثان عنه، لم يجدا شيئًا.

- شفت بقى أهو مافيش حاجة.

- هي أوضة ماما مفتوحة ليه؟!

ذهبا نحو الغرفة ونظرا بداخلها فلم يجدا والدتهما، ظهرت الدهشة على جبين

الولدين، ثم بادر حسام مردفًا:
- شُفت بقى هاتلاقي الصوت اللي سمعته دا صوت باب الشقة وماما بتقفله وراها.
- بس ماما راحت فين دلوقتي.
- انت بتسألني أنا... ماعرفش طبعًا... ويللا ننام عشان عندنا مدرسة بكرا وهانصحى بدري.
يللا بينا ولما نصحى الصبح نبقى نسأل ماما هي كانت فين.
سَمِعت أسماء صوت الولدين وهي تصعد للخروج من القبو وشعرت بوجودهما في وسط المنزل؛ فهبطت مرة أخرى إلى القبو، تنتظر نوم الأولاد لكي تصعد.
ذهب الولدان إلى غرفتيهما، إسلام بخطوات متلكئة وحسام بخطوات سريعة، متشوقًا لمعامدة النوم.

****

خرجت أسماء من القبو حزينة على حال زوجها السجين الذي تدهورت حالته الصحية من القبو الذى يمكث به، لقد عَرِف المرض سبيله إلى سليم، لقد تأذت رئتيه بعد مكوثه ثماني أعوام في القبو، وبدأت تظهر عليه أعراض الربو، أصبحت في حيرة من أمرها، والحزن والحسرة يمزقانها، فلا تدري أتحزن على حال زوجها، أم تحزن لظلم القدر لها وما حدث لهم، أم تحزن لعدم رؤية طفليها لوالدهما كل هذه الفترة، أم تحزن على ماذا وماذا؟!
توجهت نحو غرفتها مهمومة، مغمومة، متحسرة على حالها، وعلى حال زوجها الذي لا يبالي لمرضه، وتتساءل، هل سيمكث سليم داخل القبو طيلة حياته؟! فلم تعد تحتمل الصبر على هذا الحال، اليوم التالي استيقظ الأولاد، واستعدوا للذهاب إلى مدرستهم، ووالدتهم تُعِدّ لهم الإفطار مثل كل صباح، ثم سأل إسلام والدته مستفسرًا:
- أنا صحيت امبارح الساعة اتناشر بالليل.. ومالقتكيش في البيت فقلقت عليكي.. انتِ كنت فين؟
ردت عليه في ارتباك:
- كنت عند طنط "ابتسام" جارتنا يا حبيبي.
ثم مسحت بيدها على رأسه متصنعة على وجهها ابتسامة لإخفاء الارتباك، لكن عاود إسلام التساؤل مرة أخرى:
- ليه يا ماما في الوقت المتأخر دا؟
- كانت عايزاني في موضوع مهم ومايستناش لتاني يوم يا حبيبي.. وبعدين بطل أسئلة هو تحقيق ولا إيه؟
ذهب الولدان إلى المدرسة بعدما تناولوا وجبة الإفطار، ثم نزلت أسماء إلى

القبو بالفطار لزوجها، وأثناء تناوله الطعام قصّت عليه ما حدث، فقال لها سليم:

- ابقي خدي بالك بقى... وانت نازلة واتأكدي إنهم نايمين قبل ما تنزلي... عشان أنا ماعايزش الولاد يعرفوا.

- إن شاء الله ربنا يُستر.

بدأت حالة سليم تتدهور شيئًا فشيئًا، وأخذ يتملك مرض الربو من رئتيه، وبدأ في السعال، ويتحامل على نفسه ويكتم صوته على قدر استطاعته، حتى لا يسمع أحدٌ صوته، فإذا سمع صوته أحد سيكشف أمره ويُفشي سره، وبعد مرور الأيام، اشتد عليه السعال وبدأ صدره يعتصر، وزوجته المسكينة تعتصر حزنًا، على ما وصلت إليه حالة سليم الصحية، ماذا تفعل فهي لا تستطيع إحضار طبيب لفحصه ومن الصعب إخراجه والذهاب به إلى أي مشفى للقيام بالفحوصات الطبية اللازمة، ففي كلتا الحالتين مخاطرة كبيرة، واحتمال كبير أن يُكتشَف أمرهم.

****

ثمانية أعوام كفيلة أن ينسى أهل الحي والجيران قصة سليم بل وينسون ما حدث معه، وبعضهم فقط من يتذكره.

بعد عدة أيام صار صوت سعاله يخرج من القبو من الحين والآخر، السعال يزداد شيئًا فشيئًا والصوت يعلو معه وحالة سليم الصحية تتدهور مع مرور الوقت وهو ما زال لا يبالي لذلك؛ فهو يظن أنها مجرد نزلة شُعبية ستأخذ بعض الوقت وتذهب، لكنها لم تكن كذلك، بدأ يسمع الأولاد صوت السعال في مُحيط البيت من حين إلى الآخر، لكنهم لا يدرون هل يأتي من خارج المنزل أم من داخله، وذات ليلة والأولاد جالسون بجوار والدتهم بالصالة يذاكرون دروسهم، سمعوا صوت سعال شديد يأتي من أحد زوايا البيت لكنهم لا يعرفون مصدره، نظر الولدان بعضهما إلى بعض، فهذا السعال ذاته الذي يسمعانه منذ بضعة أيام، ظهر الارتباك على وجه والدتهما، ولم تبدِ أي ردة فعل حيال الصوت، فانطلق حسام قائلًا بوجه طفولي مقبوض:

- ماما صوت الكحة دا احنا بنسمعه باقيلنا كام يوم.. أنا حاسس إن الصوت دا من جوا البيت.. وبخاف قوي لما أسمعه وأنا لوحدى وبحس إن في حد في البيت معايا.

ردت الأم في ارتباك:

- ماتخافش يا حسام دا صوت حد بيكح برا في الشارع انت بس اللي بيتهيألك إن الصوت جوا البيت..

وهي من داخلها تدعو ربها بألا يعاود سليم السعال مرة أخرى، اطمأن الأولاد بعض الشيء لكلام أمهم.
مع مرور الوقت اشتد السعال على سليم، وأصبح يسعل بصوتٍ عالٍ أحيانًا، ومسموع بوضوح.

****

تحدثت أسماء مع سليم حول وجوب إحضار طبيب إلى البيت ليفحصه، فأمرها بالذهاب إلى المشفى الذي كان يعمل به، وطلب منها إحضار الدكتور "هشام عبدو" أحد الأطباء الذين يعملون بالمشفى، وهو كان مقربًا من سليم، وبينهما علاقة جيدة أثناء عمله بالمشفى، أعطاها سليم عنوان عيادته ومنزله، فما زال يتذكرهما؛ فهو الوحيد الذي يستطيع أن يأتمنه سليم على سره.
أحضرت أسماء الطبيب بعد ذهاب الولدين إلى المدرسة، دخل الطبيب إلى المنزل وهو يسألها:
- فين ابنك العيان؟
رد سليم حيث كان يجلس على منضدة بالصالة قائلًا:
- أنا اللي عيان يا دكتور.
ابتسم الطبيب مردفًا:
- سليم، فينك يا راجل؟
ثم أخذ بعضهم بعضًا بالأحضان وتصافحا.
- مالك؟ ألف سلامة عليك.
- صدري تاعبني قوي وعندي ضيق في التنفس وبا أكح كحة شديدة قوي يا دكتور.
فحصه الطبيب ثم كتب روشتة الدواء.
بدا على وجه الطبيب الانقباض والحزن قائلًا:
- الدوا لازم تاخد منه النهار دا.
- خير يا دكتور طمّنا؟
بدا على وجه الطبيب الانقباض والحزن:

- والله ما عارف أقول ايه بس سليم عنده الربو..
صُدِمَ الاثنان سليم وأسماء لسماع كلام الطبيب، ابتسم الطبيب مُهدئًا من روع سليم:
- ما تخافش إن شاء الله هتبقى كويس... بس انت كنت فين المدة دي كلها.
- هربت من السجن عشان ما يتحكمش عليّ ظلم بعشرين سنة سجن.
- أنا برضو سمعت انك هربت... بس رحت فين المدة دي كلها وإيه قصة التلات حرامية اللي انت قتلتهم؟
- أنا هاحكيلك القصة من طأطأ لسلامو عليكو..
وصار سليم يحكي له ما مر به من أحداث حتى الآن لكنه لم يخبره بمكان اختفائه.
الدواء، ذهبت لإحضار الدواء من أقرب صيدلية، كان هناك من يرقب المشهد وهو "صلاح" أحد الجيران، كان جالسًا بالمقهى المقابل لبيت سليم، ورأى الطبيب وهو خارج من البيت مع أسماء، وبيدها روشتة دواء، انتظرها حتى عادت بالدواء، وبدافع الفضول والاطمئنان أوقفها سائلًا:
- خير يا ست أم إسلام مين اللي عيان؟
تفاجأت أسماء من سؤاله وانقبض قلبها مترددة في إجابته لكنها أجابت مسرعة:
- إسلام بس تعبان شوية وجبتله الدكتور.. وهيبقى كويس إن شاء الله.
- ألف سلامة عليه.. هو عنده إيه؟
- نزلة شعبية.. والدكتور طمني الحمد لله.
- يللا ربنا يعافيه ويقوم بالسلامة.
- الله يسلمك.. استأذنك بقى.

- اتفضلي يا أم إسلام.. إذنك معاكي.
ثم عاد صلاح إلى مكانه في المقهى أمام بيت سليم حيث كان يجلس، وبعد مرور ما يقارب خمسة وأربعين دقيقة، ومع قرب عودة الأولاد من المدرسة، وما زال صلاح جالس في المقهى مع أحد أصدقائه يتحدث حول بعض الأمور اليومية والحياتية، جاء إسلام وحسام معًا من المدرسة عائدين إلى بيتهما مرورًا من أمام عيني صلاح، الذي بدت عليه الدهشة، وأخذ يحدث نفسه قائلًا:
- مش هو دا إسلام اللي مامته بتقول إنه عيان والدكتور كشف عليه النهاردا.. ازاي راح المدرسة بقى؟! ليه كدبت عليّ؟ وجابت الدكتور يكشف على مين؟ هو في حد عايش معاهم تاني في البيت وهي مخبية؟!
تجولت كل هذه الأسئلة في ذهن صلاح وانشغل عقله بهذا الأمر.. ثم توجه إلى صديقه قائلًا:
- بقولك ايه احنا عايشين من زمان هنا صح؟!
- آه يا بني احنا متربيين هنا مع بعض من صغرنا.
- وأكيد انت عارف كل الناس اللي عايشة في المنطقة هنا.
- آه طبعًا... في إيه يا صلاح انت عايز ايه بالظبط؟
- انت طبعًا عارف الست أم إسلام اللي بيتها قصادنا دا.
- آه طبعًا عارفها دي ست محترمة وفي حالها.
- أنا عارف... بس كنت عايز اعرف هوفي حد عايش معاها في البيت غير ولادها الاتنين.
- لا مافيش... من ساعة ما جوزها هرب من السجن وسابها هي والولاد... وهي عايشة لوحدها.

- في حاجة يا صلاح ولا إيه؟
- والله ما عارف أقولك ايه..
ثم أخذ يحكي له ما رآه وما حدث.
أبدى صديقه دهشته مما يحكيه له صلاح، ومرّ اليوم على هذا النحو.

****

عاد صلاح إلى بيته وقص ما حدث على زوجته، التي بدورها أبدت تعجبها مما حدث، قائلة:

- احنا عمرنا ما شفنا حد عايش معاها من ساعة ما جوزها هرب.. بس لو كلامك دا صح يبقى أكيد في حد عايش معاها وهيا ماعايزاش حد يعرف بوجوده.

- هو دا اللي فكرت فيه برضو.. بس هتكون مخبية مين؟ ومخبياه فين؟

بدأ يشك صلاح في أمر أسماء، وأصبح على تأكد أنها تخفي شيء، لا تريد أحدًا أن يعرفه.

هدأ السعال لبضعة أيام، وسار الأمر على ما يرام، لكن في يوم استيقظ الأولاد على صوت سعال شديد يأتي من قاع البيت ثم انقطع بسرعة، هرول حسام إلى أمه قائلًا:

- الصوت رجع تاني يا ماما.

ردت أمه في ارتباك وقلق:

- دا صوت حد بيكح في الشارع يا حسام متخفش كدا.

- بس انا متأكد إن الصوت من جوا البيت يا ماما.. مش انت برضو يا إسلام حاسس إن الصوت جاي من جوا البيت؟

نظر لهما إسلام قائلًا:

- آه يا ماما الصوت دا لا يمكن يكون من برا البيت.

أبدت أمهما ملامح الاستخفاف بكلامهما لتخفي قلقها وتوترها قائلة:

- دا بيتهيألكوا بس عشان انتوا لسا صاحيين من النوم، وما تخوفوش نفسكوا على الفاضي.. ويلا عشان متتأخروش على المدرسة.

أصبح الولدان يدركان أن هناك أمرًا مريبًا وغير طبيعي يحدث في البيت، مع تكرار سماعهما لهذا الصوت، وأمهما كل مرة تخرج بحجة جديدة، وبدآ يتساءلان هل تخفي عنهما والدتهما شيئًا.

ماذا تفعل هذه الزوجة والأم المسكينة اليائسة، لقد تملكتها حالة من الحسرة الشديدة على حال زوجها وحالها؛ فحالة سليم الصحية تتدهور رغم أخذ الدواء أولًا بأول، لكن مكوثه في القبو يسيء حالته أكثر فأكثر، فما كان ليصيبه الربو إلا من عيشه في القبو، والدواء أيضًا مجرد مُسكنات؛ فهي ترغب في إخبار ولديها بسر اختباء والدهما في القبو منذ ثمانية أعوام، لكنها تخاف أن يُفشيَ أمر زوجها؛ فالموقف لا يحتمل أخطاء.

أما سليم فحالته لا تسر، فهو يأس من حياته التي يحياها ولا يحياها فَيُحدث نفسه قائلًا:

- أعمل ايه في المصيبة اللي وقعت نفسي فيها دي؟ العمر بيعدي ويفوت وأنا لسا مستخبي جوا القبو وصحتي بتتدهور يوم بعد يوم.. ومش عارف أشوف ولادي واحضنهم زي أي أب. ومش عارف أمارس حياتي الطبيعية... هفضل هنا لحد إمتى؟

ثم صمت للحظات متأملًا حياته التي تتدمر بمرور الوقت بسبب يأسه وخوفه من المواجهة، قطع هذا الصمت اندفاع الهواء من حلقه معلنًا عن سلسلة من السعال الشديد المتواصل، وهو يحاول كتم صوته قدر المستطاع لكنه لا يستطيع كتمه طويلًا، وحالته تسوء أكثر فأكثر، ويومًا بعد يوم.. أخذ يناجي ربه ويدعوه ويتوسل إليه لينجده من هذه المحنة، وأن يرفع عنه البلاء.

أصبح صوت سعال سليم في القبو يُسمع بوضوح تام، وصار الجيران يسمعون

صوت السعال، وكثر الحديث حول هذا الصوت الذي يصدى، وهناك أيضًا مَن يقول أنه سمع صوت شيء يفتح ويغلق في قاع هذا البيت؛ فصار الجيران كلهم يشعرون بشيء غير طبيعي يحدث في هذا المنزل؛ فقاموا بإبلاغ الشرطة.

أتت الشرطة وقامت بتفتيش البيت، والبحث في كل شبر وزاوية، حتى وجدوا بابًا يؤدي لقبو تحت البيت، وأسماء تراقب ماذا سيحدث وأفراد الشرطة يُفتشون وعيناها تدمعان خوفًا وقلقًا على زوجها المسكين، هل حانت لحظة النهاية.

وبعد ثمانية أعوام ها قد أخرجت قوات الشرطة سليم من القبو الذي يعيش به، وكان يبدو عليه الإرهاق الشديد والإعياء، وبدأت الشرطة باستجوابه والاستفسار منه.

- انت مين؟

- أنا اسمي سليم.

- عايش هنا في السرداب باقيلك قد إيه؟

- عايش بقالي تمن سنين... ودا بيتي والست دي مراتي.

بدا على وجوه الجميع الذهول والدهشة مما سمعوه، ثمانية أعوام!!

- إيه اللي خلاك تعمل كدا؟

قصّ عليهم سليم قصته وقضيته وما حدث معه حتى هذه اللحظة، استمع رجال الشرطة ومَن كان حاضرًا من الجيران لقصته التي يعتبرها البعض خيالية؛ فهل هناك إنسان يخاف من السجن فَيسجن نفسه في قبو ثمانية أعوام، فقاطعه أحد رجال الشرطة قائلًا:

- أنا فاكر القضية دي.. انت إيه اللي خلاك تعمل كدا.. دا بعد شهر واحد من هروبك اعترفت أم التلات لصوص.. إن أولادها خططوا لسرقة بيتك.. والقاضي أصدر قرارًا ببراءتك.

سَمِعَ سليم كلام رجل الشرطة، وكأنما صعقته صاعقة، وقعت هذه الكلمات عليه كالرصاص فاخترقت رأسه، لا يكاد يصدق ما يسمعه فقد أظلمت الدنيا في وجهه أكثر من ذي قبل، ثم نظر إلى الأرض، ويبكي وزوجته أسماء تحتضنه لتخفف عنه.

فقد ندم سليم أشد الندم وذاق ألم اليأس لأن يأسه من إثبات براءته ومن مواجهة مشكلاته جعله حيًا ميتًا؛ فقد أخطأ عندما اختار الهرب دون المواجهة ولم يعط هذا القرار حقه من التفكير، فإن الوقت الذي ستستغرقه في التفكير في شيء ستفعله أو ستقوله، أقل بكثير من الوقت الذي ستستغرقه في الندم على شيء فعلته أو قلته ولم يكن من الصواب قوله أو فعله.

فيوجد في عالمنا الكثير من الناس، يجعلهم اليأس أمواتًا ويدفنون أنفسهم وهم أحياء فهولاء كثيرون حولنا، كشابٍ عاطل عن العمل يجلس بأحد المقاهى ليمضي الوقت في اللهو وارتكاب المشاكل، بسبب اقتناعه أن ظروفه صعبة وأن الدنيا ليست لأمثاله ولا يوجد عمل يناسبه، أوخريج جامعي لم يجد فرصة عمل بمجاله، أو لأنه مر بظروف سيئة جدًا فقرر هو بنفسه أن تسوء الظروف أكثر، فالدنيا لا تظلم أحدًا، فكلٌ منّا يأخذ حقه كاملًا وليس شرطًا أن يكون النعيم في المال، فهناك نعم أفضل بكثير لا تعد ولا تحصى تركتها كلها ونظرت إلى نعمة المال فقط، فكم أنت ظالم لنفسك؛ فلا تجعل نفسك سجين اليأس، وتستسلم لسرطان يأسك ليدمر حياتك شيئًا فشيئًا، بل واجه

مشكلتك بكل رجولة وتحدٍ وإصرار؛ فالحياة لا تخلو من التحديات، فأنت لم تُخلق عبثًا، فامض لما خُلِقت لأجله ولا تدفن نفسك فقط لأنك يائس! ولا تحكم على نفسك بالموت المبكر، واجعل نفسك كالقمر كلما اشتد الظلام ازددت توهجًا؛ فحاول وافشل وانجح حتمًا سيكتب الله لك النجاح إذا سعيت بجد وصدق، فلكل منا موهبته التي خلقه الله بها فلتستثمر نفسك، ولتحترف في ذلك.

صاحب المال

هو يدعى مصطفى، شاب راشد لم يُكمِل عقده الرابع، ما زال بعمر الخامسة والثلاثين، مكافح مجتهد، يسعى دائمًا، لا يضيع وقته في اللاشيء، ليس مِثل الكثير من شباب هذه الأيام؛ فقد أصبح في وقت قصير من رواد الأعمال في مصر، حيث يملك شركة استيراد وتصدير لم يمر عليها عقد من الزمن، فيقوم باستيراد الأجهزة الإلكترونية من الخارج مثل: اللاب توب والهواتف بأنواعها، ثم يقوم بتوزيعها على السوق المصرى، ويصدر المواد الغذائية للدول المجاورة حيث يملك مصنعًا لتعبئة وتغليف المواد الغذائية، كما هو شريك في بعض الشركات المحلية بالبلاد، استطاع أن يكون ثروة في وقت قياسي، بسعيه وعمله الدؤوب وكفاحه وذكائه التجاري.

هو متزوج من "وفاء" الفتاة التي أحبها من كل قلبه وأحبته من صميم قلبها، فكانت خير العون الشريك له في حياته الزوجية؛ فما أجمل أن تستند على امرأة تحبك حينها لن تسقط أبدًا، لهما ابنان، الأول "أحمد" في سن العاشرة، والآخر "كريم" في سن السادسة.

كانت حياة مصطفى الصاوي مليئة بالعمل والكفاح؛ فوالداه توفيا منذ خمسة أعوام بحادث مؤلم بسيارتهما، له شقيق أصغر منه اسمه "نادر"، أخذه للعمل معه بشركته كمدير أعمال له.

مصطفى كان هادئ الطباع مجتهدًا في عمله ليس له أعداء، فكانت علاقته جيدة بالجميع.

بينما أخوه نادر كان على عكس ذلك؛ فهو يحب اللهو والسهر وغير ملتزم، لا يتحمل المسئولية، لكن مصطفى ألقمه معه بالعمل في الشركة، لكي يكون تحت عنايته ويتحمل مسئولية العمل؛ فقد توفي والداهما اللذان طالما دللانه ولم يحملّانه حتى مسئولية نفسه.

في الصباح الباكر انطلق مصطفى بسيارته "البي إم دابليو" وذهب حيث مقر شركته وسط "مدينة نصر"، وصل إلى مقر الشركة ثم تبادل التحية مع الموظفين بالشركة.

- صباح الخير.

- صياح الخير يا فندم.

توجه نحو مكتب نادر فلم يجده، كعادته يأتي متأخرًا ويكون أول الراحلين، اتصل به "مصطفى"، لحظات ورد عليه نادر.

مصطفى بنبرة مزاح ساخرة تحمل في ثناياها اللوم:

- صباح الخير يا نادر بيه.

ردّ نادر بصوت خافت يملأه النوم:

- صباح الخير يا مصطفى.

- ماجتش الشركة لغاية دلوقتي ليه.. الساعة داخلة على عشرة.

جمع نادر لعابه ثم بلل جوفه حتى يمحو نبرة صوته الخافتة:

- اااا أنا جي في الطريق دقايق وهكون عندك.

- أكيد كنت سهران مع الشلة الضالة بتاعتك.. صح؟

بدا على وجه نادر بعض الامتعاض ثم أردف بنبرة كلها حيوية:

- آه كنت سهران معاهم امبارح أصل مكنتش شفتهم من زمان. وانت عارف مفيش أمحمود من قعدة الصحاب.
- ماشي يا سيدي.. أول ما توصل بقى تعالى على مكتبي.. أوك ؟
- حاضر.
ألقى نادر هاتفه بجانبه وهو يتأفف فلم يأخذ من النوم قسطًا يكفيه، ثم قفز من سريره مسرعًا ليذهب إلى الشركة.
وصل إلى الشركة تمام الساعة الحادية عشرة، فور وصوله، سار بخطوات مترددة نحو مكتب رئيس الشركة "مصطفى" وهو يستعد لسماع توبيخ أخيه له ثم بعض النصائح وبعد ذلك يبدأ الحديث عن العمل.
مصطفى جالسٌ خلف مكتبه كالعادة وجلس نادر على مقعد أمام المكتب، ظلا يتحدثان معًا حول شحنة الأجهزة الإلكترونية التي ستصل ميناء "الغردقة" خلال الأسبوع القادم، فهم ينتظرون سفينة الشحن الآتية من الصين التي تحمل الشحنة الخاصة بالشركة.
فقد أصبحت الصين في السنوات الأخيرة عملاقة في جميع الصناعات بأنواعها وقوة اقتصادية كبرى تهدد عرش أمريكا؛ فصارت تغزو جميع المجالات المختلفة وبتفوق.
انتهى هذا الاجتماع الصغير برنين هاتف مصطفى ويظهر على شاشته اسم زوجته "وفاء"، التقط هاتفه وأجاب على الاتصال قائلًا:
- ألو، أيوا يا وفاء في حاجة؟
- "كريم" تعبان وحرارته مُرتفعة جدًا تعالى بسرعة.
- أنا هعدي على الدكتور "محمود " هجيبه وآجي حالًا مسافة السكة.

- طب بسرعة ما تتأخرش.
أغلق الخط منتفضًا من مكانه في عجالة والقلق يملأ وجهه.
- في إيه يا مصطفى إيه اللي حصل؟
- كريم حرارته مرتفعة جدًا ولازم أجيب الدكتور واروحله حالًا.. أصل لو أنا اتصلت عليه وبس ممكن يتأخر أنا عارفة.
- طب انا جاي معاك.
- لا ما تتعبش نفسك انت خليك هنا.
- تعب إيه هو احنا لينا أعز من كريم، يلا بينا.
خلال دقائق قليلة كان الاثنان أمام العيادة الخاصة بالدكتور محمود المتخصص في مثل هذه الأمراض التي تأتي للأطفال في مثل هذه السن عن طريق الفيروسات التي تنتقل عبر الهواء، سريعًا ما أحضرا الطبيب إلى بيت مصطفى وقام بالفحص الطبي لكريم.
- كريم لازم يرتاح أسبوع على الأقل ولازم يتغذى شوية وجيبوله الدواء اللي في الروشتة دي حالًا.
أخذ نادر الروشتة من يد الدكتور قائلًا:
- حاضر يا دكتور.
صاحب نادر الطبيب حتى الباب، ثم ذهب ليحضر الدواء من أقرب صيدلية، مر أسبوع وقد تمحمود ت حالة كريم الصحية واسترد عافيته.

****

ذهب نادر ليطمئن على وصول شحنة الأجهزة الكهربائية إلى الميناء بسلام، وينهي بعض الإجراءات والأوراق اللازمة لمرور الشحنة من الجمارك، اطمأن نادر على وصول الشحنة بسلام إلى الميناء وهي الآن على أحد أرصفة الميناء، بصفته مدير أعمال مصطفى قام بإنهاء كل ما هو لازم من الأوراق والإجراءات لتمر الشحنة بسلام.

مر عامان منذ أن بدأ نادر في العمل مع مصطفى بالشركة، اكتسب نادر خبرة لا بأس بها في مجال البيزنس من عمله مع أخيه مصطفى؛ فكان يوكله مصطفى ويقحمه في الكثير من الأعمال وكان يقوم بإنجازها بطريقة أو بأخرى، فبدأ يظهر لديه طموح الثروة فكان يحاول أن يكون شركته الخاصه به ويستقل عن مصطفى لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك فهو ليس كمصطفى في سعيه وطموحه ونشاطه وعمله الدؤوب وبدأ يتكون بداخله حقد تجاه مصطفى؛ فكان حينما يجلس بمكتبه ويقارن نفسه بأخيه مصطفى فيقول في نفسه:

- أنا ماعملتش حاجة في حياتي ومصطفى صاحب شركة ومصنع وكون ثروة كبيرة واتجوز اللي بيحبها وعنده ابنين.. وانا زي منا مجرد مدير أعمال، رجل الأعمال مصطفى الصاوي.. وحتى لما حاولت أكون شركتي الخاصة معرفتش.. أنا فعلًا فاشل ومراهق ومش عارف أعمل أي حاجة.. لأ انا مش فاشل لازم اثبت نفسي وابقى المحمود من مصطفى.

رن التليفون الخاص بمكتب نادر والذي يستقبل مكالمات مكتب مصطفى فقط ليقطع عليه تفكيره.

- ومصطفى عايز إيه دلوقتي.

ثم رفع سماعة التليفون مجيبًا على الاتصال:
- آلو يا مصطفى.
- عايزك تجيلي المكتب حالًا.
- حاضر.
- خد الملف دا فيه كل الأوراق الخاصة بالشحنة اللي هتوصل من الصين خلال شهرين، عايزك تخلص ورق التأمين بتاعها في أسرع وقت.
- حاضر.
- استنى يا نادر، مالك اليومين دول حالك مش عاجني؟
- مفيش حاجة انا تمام.
- قول يا بني انا اخوك إيه اللي مضايقك؟
- مفيش حاجة مضايقاني واللهِ.
- طب خلاص لو حبيت تدردش معايا في أي حاجة مضايقاك انا موجود في أي وقت أنت عارف أنا مليش غيرك.
- ربنا يخليك يا مصطفى يا رب.
- يلا روح وخلي بالك من نفسك.
خرج نادر من مكتب مصطفى وهو يقول لنفسه:
- وانت من إمتى بتهتم يا مصطفى ولا عايز تعيش دور الأخ الكبير الحنون أبو قلب كبير.
توجه نادر إلى مكتبه وجلس على كرسيه وألقى الملف من يده على المكتب ونار الحقد والغيرة تأكل في عقله حتى بزغت فكرة شيطانية في عقله.
فقرر عدم إتمام أوراق التأمين الخاصة بالشحنة وفتح درج المكتب ووضع به

الملف؛ فهذا الشطر الأول من خطته الشيطانية التي ألهمته بها نفسه الشريرة.
يا لدناءة النفس البشرية الضعيفة الشريرة، فقد تلخصت قلة حيلتها في التسبب لخسائر لأخيه الإنسان، فما بالك بأخٍ ابن ابٍ وأمٍ قد دعاه حقده على أخيه الأكبر في أن يتسبب له في خسائر باهظة، فقد عمته نار الحقد التي امتلأ بها صدره.
فكان هذا هو الشطر الأول من خطته الدنيئة، أما الشطر الثاني فهو يعلم ما عليه فعله ولكن عندما تصل الشحنة إلى الميناء.
فلم يكن نادر بالطيبة والبراءة والهدوء الذي يظهر عليه، فهذا الهدوء يكسو كمًا كبيرًا من الخبث والدهاء والمكر، لكنه كان يستخدمه بالطريقه الخاطئة دائمًا، ليشبع شهوة الغيرة والحقد بداخله نحو من حوله، فلم يكن يرتاح إلا مع شلته الضالة كما يطلق عليها مصطفى فهم فعلًا مجموعة من الشباب العابث غير المبالي بشيء، كما أن منهم مَن يتعاطى المخدرات وطالما حذره مصطفى من أصدقاء السوء هؤلاء وأن يتجنبهم لكن مصطفى لا يعلم أن أخاه هو قائد الشلة.

رنّ هاتفه المحمول مُعلنًا عن اتصال من صديقه "تامر زين"
كما يظهر اسمه على شاشة هاتفه فهو أحد أفراد الشلة الضالة، متوسط القامة ذو بشرة قمحية وشعر مُفَلفل، ابتسم "نادر" ثم التقط الهاتف مجيبًا:
- أيوا يا تمورة يا حبيبي عامل إيه؟
- تمام يا صاحبي الحمد لله، أخبارك انت عامل ايه؟
- أنا الحمد لله تمام.
- عايزين نقعد النهاردا بقى مقعدناش من زمان وللا انت مشغول؟

- وحتى لو مشغول لازم نتقابل النهاردا يا برووو.
- خلاص هجيب الرجالة وأعدي عليك الساعة تمانية إشطا.
- إشطا يا صاحبي.
- مع السلامة.
- سلام يا حبيبي.

****

رنّ هاتف نادر في تمام الساعة الثامنة، أجاب على المكالمة فور إمساكه الهاتف دون النظر إلى اسم المتصل لأنه يعلم أن تامر أو أحد أصدقائه من سيطلبه في تمام الثامنة وبالفعل كان أحدهم.

- ازيك يا صاحبي.

- أنا تمام يا سمسم.

فهو سمير ناجي صديقهم ثالث الشلة وليس آخرهم؛ فهناك ضلع رابع وتكتمل الشلة، وهو حازم شاهين، وهو من يدبر لهم المخدرات إذا احتاجوها فله علاقة مع أحد الديلرات ومروجي المخدرات.

- إحنا قريبين من شقتك اجهز بقى وانزل استنانا تحت.

- تمام انا جهزت خلاص.

- إشطا سلام.

- سلام.

توقفت سيارتهم أمام العمارة التي يقطن بها نادر والتي كان ينتظرهم أمامها، فتح نادر باب السيارة الخلفي ودلف إلى داخلها:

- ازيكوا يا رجالة.

- ازيك يا كنج.

وتبادلوا السلامات والضحكات العالية والمزاح.

- هنسهر فين النهاردا ؟

- هو في غيره المكان بتاع كل مرة.

- طب يللا بينا.

انطلقوا بالسيارة وتوقفوا أمام كافيه أشبه بـ"غرزة" لكن في حي هادئ وراقٍ

بمدينة نصر، أمضوا الليلة في ضحك وسمر ومزاح ولهو كما اعتادوا في حياتهم..
مرّ شهران واقترب موعد وصول الشحنة إلى الميناء، يقود نادر سيارته متجهًا إلى الشركة ويحدث نفسه قائلًا:
- جه وقت تنفيذ الجزء التاني من الخطة.
فتح هاتفه وبحث في قائمة الأسماء حتى توقف عند اسم "أبو زيد ميناء "موظف صغير بالميناء والذي كان على اتصال دائم بنادر لينهي له بعض الأوراق الخاصة بالشحن سريعًا وييسر له الإجراءات بفضل علاقاته بالموظفين داخل الميناء وذلك بمقابل مالي ضئيل وكان يتابع نادر من خلاله أخبار شحنهم التي تصل الميناء أولًا بأول.
- نادر باشا أخبارك إيه؟
- تمام تمام.
- عايزك تجيلي بكرا الساعة سبعة.
- خير يا نادر باشا.
- خير ماتخافش هقولك لما تيجي.
- أوامرك يا نادر باشا سبعة بالدقيقة هكون عندك.
- تمام وانا هستناك، سلام.
- في رعاية الله يا باشا، في رعاية الله مع السلامة.
يقول أبو زيد في نفسه وهو يهز رأسه بين كتفيه رافعًا حاجبيه وتصحبها ابتسامة تعجب ساخرة:
- نادر باشا هيكون عايزني في إيه يعني؟! أكيد في حاجة "شمال" عايزني اخلصها له.

الليلة هادئة كسكون المياه في نهاية يوم صيف أثناء غروب الشمس، بعد أن عاد مصطفى من عمل طويل، أثناء جلوسه مع زوجته وفاء وابنيه كريم وأحمد وضحكاتهم منتشرة في أرجاء البيت الواسع فكانوا يستمعون إلى أحد الأفلام الكوميدية المُضحكة للفنان الراحل إسماعيل يس:

- بابا إحنا عايزين نروح نصيف في إسكندرية الأسبوع الجاي.

- إيه رأيك يا وفاء نروح ((إسكندرية)) الأسبوع الجاي؟

- أنا شايفة الوقت مناسب.. كريم خلص امتحانات الأسبوع اللي فات، وأخد الأجازة والجو اليومين دول حر جدًا.. فنروح نغير جو.

- أوك زي ما انتوا عايزين.. الأسبوع الجاي نروح إسكندرية ونقضي أسبوع كامل.

- هاااااااااا.

انطلقت من شفتي كريم وأحمد مع ابتساماتهما العريضة البريئة.

نظرت وفاء لمصطفى قائلة:

- بس هتبعد أسبوع كامل عن الشركة من هيديرها ويشوف الشغل.

- نادر طبعًا.. مبقاش صغير وكون خبرة مش بطالة عن الشغل والموظفين عارفين شغلهم.. وانا هتابع معاه الشغل بالتليفون ماتخافيش كله هيبقى تمام.

وفي يوم الجمعة انطلق مصطفى بسيارته بصحبة عائلته نحو إسكندرية؛ فهو يملك شاليه صغير جميل بإسكندرية يناسب العائلة الصغيرة.

مر يومان ومصطفى ووفاء والأبناء يستمتعون بوقتهم على شاطئ البحر المتوسط، وبزيارة بعض الأماكن الأثرية مثل قلعة قايتباي وغيرها من المناطق الأثرية، كما كان يتابع مصطفى ويباشر سير العمل بالشركة مع نادر بهاتفه

المحمول والإنترنت.
أتى اليوم الرابع وكان ينتظر مصطفى اتصالًا من نادر أو سكرتيره الخاص "أحمد" لكي يعلماه بإخبار الشحنة التي ستصل خلال الساعات القليلة المقبلة كما أمرهم، أم أنها وصلت بالفعل الميناء فهو لا يعلم.
سمع صوت هاتفه يرن فخطفه من مكانه ثم نظر على شاشة الهاتف ليعلم هوية المتصل، إذ به أحمد السكرتير كما توقع، رد على المكالمة مسرعًا:
- أيوه يا أحمد طمني الشحنة وصلت ولا لسا؟
صمت أحمد للحظات ثم بدأ بصوت مضطرب:
- الشحنة وصلت الميناء امبارح بالليل بس.
- بس إيه يا أحمد قول متقلقنيش.
- واحد من المسؤولين بتوع المينا اتصل بيا دلوقتي وبيقول إن في حريق في سفينة الشحن اللي كان عليها الشحنة بتاعتنا وبيقولي إن معظم الحاويات اتحرقت.
- انت بتقول إيه؟ دا حصل ازاي؟
- ماعرفش والله يا فندم انا كلمت الأستاذ نادر وهو راح الميناء.
- طب اقفل دلوقتي سلام.
ثم بحث سريعًا عن رقم نادر في قائمة الأسماء.
- انت فين يا نادر؟
- أنا في الميناء.
- طمني إيه اللي حصل للشحنة؟
- الشحنة كلها اتحرقت يا مصطفى.

- يا نهار اسود كلها.
- خير إيه اللي حصل يا مصطفى؟
- بقولك ايه يا نادر شوف بقى أوراق تأمين الشحنة وامشي في الإجراءات اللازمة وانا جاي النهاردا.
- إحنا ماعملناش تأمين على الشحنة دي يا مصطفى.
- ازاي يا بني آدم انا مديك أوراق التأمين بإيدي من شهرين عشان تخلصها.
- يمكن نسيت من زحمة الشغل.
ارتفع صوت مصطفى بنبرة حادة يملأها الذعر تحمل في طياتها الكثير من القلق والتوتر:
- نسيت ازاي هي دي حاجة تتنسي يا بني آدم وانت مبتتعلمش حاجة أبدًا.. انت عارف تمن الشحنة دي قد إيه؟ اقفل يا نادر.
أغلق مصطفى المكالمة مضطربًا مسرعًا، لاحظت وفاء الذعر والتوتر على وجه مصطفى فبادرته مردفة:
- إيه اللي حصل يا مصطفى؟
أجابها بكلمات مضطربة غمرها القلق وصاحبتها اتساع عينيه وهو يتحدث إليها إثر الصدمة والمصيبة التي لحقت به:
- الشحنة بتاعتنا اللي جت من الصين ولعت كلها في المينا والأستاذ نادر ماكانش عامل عليها تأمين.
- يا ستار يا رب وإيه العمل دلوقتي؟
- يلّا بينا عشان هننزل مصر دلوقتي حالًا.

انطلقوا بسيارتهم مسرعين نحو القاهرة، لا يدري مصطفى ماذا يفعل بالمصيبة التي حلت به؛ فالشحنة التي احترقت تساوي ملايين ولم يكن عليها تأمين فقد خسر ثمن الشحنة التي تساوي ملايين، لم يسبق وأن تكبد كل هذه الخسائر في شحنة واحدة، يا لها من مصيبة قد حلت بشركة لم يفت عليها عقد من الزمن.

وصل مصطفى إلى القاهرة، ثم أوصل زوجته وأبناءه إلى الفيلا، بعد ذلك اتصل بنادر ليستفسر منه عن المستجدات، رن هاتف نادر الذي كان يملأ وجهه نظرة تمتع ورضا وسرور لما فعله؛ فقد امتلأت نفسه بشوائب الكراهية والبغض، أما مصطفى المسكين فلا يعلم أن ما يحدث هو بسبب أخيه، لا يدري ماذا يفعل ليعوض تلك الخسائر، فما أقذر أن تأتيك الخيانة من أقرب إنسان إليك، فالنفس البشرية أمارة بالسوء، فلا تدع الحقد يحتل وجدانك ويتحكم في قراراتك حتى لا تصبح شيطانًا يمشي على الأرض..

- آلو قولي يا نادر عملت إيه؟

- مفيش.. فرق الإطفاء طفوا الحريق والشرطة جت وجابوا لجنة من النيابة عشان تبحث عن سبب الحريق لأن الحريق كان كبير.

- طب وصلوا لإيه؟

- بيقولوا الحريق دا بفعل فاعل.

- بفعل فاعل ازاي؟

- اللجنة اللي جت تبحث في الموضوع أكدوا إن الحريق حصل بسبب البنزين وغواصين البحث لاقوا جراكن بنزين تحت الميا.

- يعني اللي ولع في الحاويات اللي على السفينة ولع فيها ببنزين؟

- أها.
ثم بنبرة عتاب شديدة اللهجة تحمل في ثناياها الغضب:
- طب انت ازاي تنسى تعمل أوراق التأمين بتاعة الشحنة، انت عارف غلطة زي دي سببتلنا خساير قد إيه؟
- والله أنا نسيت من زحمة الشغل وانا مكنتش أعرف إنها هتتحرق.. وفي شحنة قبل كدا ما معملناش ليها تأمين وجت وربنا ستر.
- تقوم تكسل تعمل للشحنة دي تأمين... انت بتهزر؟!! أنا مش منبه عليك إن كل شحنة لازم نعمل ليها تأمين؟
- أنا عارف إني غلطت انا..
أغلق مصطفى المكالمة في وجه نادر من شدة غضبه وبقيت جملة واحدة مما قاله نادر في أذن مصطفى يرنو صداها في عقله وهي: الحريق بفعل فاعل، بدأ يسأل نفسه:
- مين اللي من مصلحته يضرني؟ وأنا طول عمري ماليش أعداء؟ مين اللي عايز يشتري عداوتي؟ مش يمكن ما كانش قاصدني انا.. ما في شركات كتير كان ليها شحن على السفينة ومعظم الشحن اتحرقت؟
توالت الأسئلة والشكوك في رأس مصطفى وتكاثرت علامات الاستفهام دون إجابات وذهبت عنه راحة البال والطمأنينة،
وعلى الجانب الآخر على عكس حاله، كان نادر سعيدًا يتمتع بما فعله، "هكذا هو الإنسان الفاشل الحاقد إذا فشل في تحقيق النجاح الذي أنت عليه، سيدفعه حقده على أن يضرك بشتى الطرق لا محالة".
لم ينم مصطفى هذه الليلة من التفكير والحزن وصار يدعو الله ليكون في عونه

بهذه المحنة التي وقع بها.
أتى صباح اليوم التالي وذهب مصطفى إلى الشركة، اتصل بـ"خالد بهنسي "المحامي الخاص به وطلب منه أن يأتي إلى الشركة وأمره بمتابعة تحقيقات الشرطة في حادث الحريق ويعلمه ما حدث في التحقيقات.
طلب مصطفى من "أحمد" سكرتيره الخاص أن يعلم مدير الشئون القانونية ومدير الحسابات أن يحضرا إلى مكتبه فورًا لإجراء اجتماع عاجل، في غضون دقائق قليلة بل ثوانٍ حضر الاثنان إلى مكتب "مصطفى" وسرعان ما بدأ الاجتماع:
- أنا عايزكوا تاخدوا الإجراءات اللازمة عشان نقلل خساير الشركة على قد ما نقدر لأن الشحنة اللي اتحرقت الأستاذ نادر معملهاش تأمين.
بوجه يملأه الدهشة والتعجب تحركت شفتا الأستاذ "محمد بيومي" مدير قسم الحسابات بالشركة مردفًا:
- تكلفة الشحنة بملايين يا فندم ازاي الأستاذ نادر ماعملش تأمين على الشحنة؟!! وهيبقى صعب على الشركة تتحمل خسارة زي دي.
قاطعه مصطفى بنبرة شبه حادة قائلًا:
- أنا عارف داكله.. أنا عامل الاجتماع دا عشان نشوف حلول أو نشوف هنعمل إيه في المصيبة دي؟
- أنا شايف إننا ناخد قرض من البنك يغطي نص تكلفة الشحنة اللي اتحرقت.
- أمممم طب انتا يا أستاذ "هشام" مفيش حل عشان نقلل تكلفة الشحنة؟
- إن شاء الله يا فندم أنا هبعت فاكس للشركة الصينية أشرح فيه كل اللي

حصل وارسل لهم الأوراق والصور اللي تثبت صحة كلامنا وأطلب منهم تخفيض تكلفة الشحنة..

- في حاجة تانية يا فندم برضوا ممكن نعملها؟

- إيه هي؟

- ممكن حضرتك تقلل المرتبات شوية الشهرين الجايين بحيث نقدر نعوض المبلغ في أسرع وقت... إيه رأيك يا فندم.

صمت مصطفى لبرهة يفكر باقتراح أحمد.. ثم تابع قائلًا وهو يهز رأسه موافقًا:

- ماشي، ادرس الموضوع دا في أسرع وقت... واعرضه عليّ.

مرت عدة أيام وقد تغيرت معاملة مصطفى لنادر للأسوأ فلم يعد يوكل إليه الكثير من الأعمال لاستهتاره وإهماله وعدم الثقة به. وبدأ يعامله معاملة جافة فلم يعد يمرر له أي خطأ، ولو كان بسيطًا، ولم يعد يسمح له بالتأخير وبدأ يوبخه أمام الموظفين بالشركة عندما يخطئ، حيث شعر مصطفى أن تساهله مع أخطاء أخيه بالعمل جعلته مستهترًا بعمله وذلك سيخلق شيئًا من الفوضى والعبث بالشركة، فمن نظر مصطفى أن نادر موظف قد تسبب في خسائر للشركة ولوكان موظفًا عاديًا لكان طرده لكنه أخوه، فإذا كان موظفًا في شركة أخرى لكان طُرِد في الحال، لكن مصطفى صاحب القلب الطيب لا يعلم أن أخاه نادر هو من دبر كل ذلك.

****

لم يكن في تقدير نادر أن الحريق سيصير به تحقيقات ويجري الحديث والتحقيق به على هذا النحو؛ فالشرطة ما زالت تحقق وتأخذ أقوال العمال في الميناء ومعهم "أبو زيد" وتجمع الأدلة اللازمة للإمساك بالفاعل، انتابه القلق حيال ذلك، وبدأ أبو زيد يسبب له صداعًا بمكالماته المستمرة من حين إلى الآخر، يطالبه فيها بمبلغ آخر إضافي يعادل المبلغ الذي أخذه قبل ذلك، له ولصديقه الذي ساعده بهذه الجريمة، وهذا بسبب التحقيقات التي جرت معهما ومخاطرتهما بفعل شيء مثل ذلك وطمعهما أيضًا في المزيد من المال، فما كان لهما أن يرفضا مبلغًا هكذا، فعشرة آلاف لكل منهما جعلتهما يوافقان على هذا العرض فورًا، حيث إن مرتبهما لا يتخطى الألف وأربعمائة جنيهًا فلن يستطيعا أن يوفرا مبلغًا كهذا حتى ولو بعد أعوام بسبب مسؤولياتهما المعيشية ومصاريف أسرتيهما.

فقد وضع "أبو زيد" "نادر" تحت ضرسه، فإذا أباح بسره لأخيه مصطفى ستكون كارثة لـ"نادر"، سينتهي أمره.

بإحدى الليالي حيث يجلس نادر مع أصدقائه يضحكون ويتسامرون وفوقهم سحب الدخان الصادرة من السجاير، بالكاد تستطيع التنفس من كثافة الدخان، تلقى هاتف نادر مكالمة وبالكاد سمعها، إذا باسم "أبو زيد" ظاهر على الشاشة، نفخ نادر ما في فمه من دخان في الهواء ثم تابع بصوت غاضب ومضطجر مصحابةً له ملامح وجه عابسة:

- انت تاني يا زفت.. اسمعوا يا جدعان.. أيوا "يا ابو زيد" عايز ايه؟

- مساء الخير يا باشا.

- مساء الخير يا سيدي.

- إيه يا باشا انت نسيت العشرين ألف جنيه اللي اتفقنا عليهم ولا إيه؟
- مانسيتش ولا حاجة.. بس كنت مشغول الأيام اللي فاتت.
- ربنا يعينك يا نادر باشا.. أصل الواد اللي كان معايا في العملية بيمر بظروف صعبة اليومين دول.. ابنه بيعمل عملية. ومحتاج المبلغ دا ضروري.. والحكومة لسا حاطة عينيها علينا وكل شوية (سين وجيم) فمبلغ زي دا مايجيش حاجة في اللي احنا عملناه.

بنبرة استفهامية غاضبة:

- ما انتوا واخدين مبلغ زيه قبل كدا ولا انت نسيت؟
- منسيتش يا باشا.. بس زي ما قلتلك.. واحنا خدامينك في أي حاجة تانية يا نادر باشا.
- ماشي... يومين كدا وهرن عليك أعرفك المكان اللي هسلمك فيه الفلوس.
- وانا في الانتظار يا باشا.
- يلا مع السلامة.
- في رعاية الله يا باشا.

وضع نادر هاتفه على الطاولة التي أمامه، وقد ذبلت ابتسامته وأخذ يفكر في الموضوع بتمعن، وسرح في عالم آخر، فأبو زيد يطمع في المزيد من المال؛ فنادر بالنسبة له فرصة ذهبية لكسب المال؛ فكلما احتاج مالًا سيطلبه من نادر، و"نادر" لا يستطيع الرفض لأن أبو زيد بكل سهولة يستطيع أن يتواصل مع مصطفى ويخبره بأن نادر هو السبب وهو مَن خطط لحريق الشحنة بالميناء وأنه من كبده كل هذه الخسائر، كل هذا يدور برأس نادر الذي استفاق من تفكيره على ترتيب صديقه "حازم" على فخذه مردفًا:

- مالك يا صاحبي.. سرحان ومضايق كدا بعد ما خلصت المكالمة؟!
- ماليش ياحزوم... مفيش حاجة.
اقترب منه أكثر وأمال رأسه عليه قائلًا:
- قول ياصاحبي مالك جايز أساعدك.
قص عليه نادر ما حدث وشرح له ما في الأمر وأصبح "حازم" على دراية بما فعله نادر بأخيه.
- انت عارف يا صاحبي... أنا لو مكان أخوك وعرفت اللي انت عملته أرفدك وأسجنك وانسى إن ليّ أخ.
سمع نادر هذه الكلمات ولم يتأثر بها كأن قلبه استحال حجرًا في قسوته؛ فهذا النوع من البشر لهم قلوب أقسى من الحجارة؛ فقد أضلهم شيطانهم عن الصواب وأخذوا من الشر والضلال سبيلًا.
- طب إيه العمل دلوقتي يا صاحبي؟! انت شايف أنا أعمل إيه؟
- بقولك ايه أبو زيد دا كل شوية هيطمع في فلوس زيادة ومش هتلاحق عليه وممكن بتليفون واحد يقول لأخوك مصطفى على كل حاجة.
- ما هو دا اللي انا خايف منه.. فكر معايا في حل يا حازم.
استنشق "حازم" نفسًا من السيجارة ثم أطلقه في الهواء وهو ينظر إليهِ بعيون متأملة متفحصة مفكرًا في حل للمأزق الذي أوقع نادر به نفسه، ثم بعد لحظات قليلة جدًا انطلق لسانه مردفًا حلًا لهذا المأزق، أو ما يحسبه حلًا من وجهة نظره:
- بقولك أبو زيد دا لازم تخلص منه.
نظر نادر إليه نظرة استفهامية تعجبية قائلًا بصوت خافت:

- يعنى إيه؟! واخلص منه إزاي؟
فتابعه حازم واثقًا جادًا في حديثه:
- يعني لازم يموت.
قاطعه نادر بصوت خافت ووجه معترض متعجبًا لما اقترحه عليه حازم قائلًا:
- انت بتقول ايه؟! قتل لا.
قالها نادر وهو يهز رأسه رافضًا الأمر:
- هو دا الحل الوحيد اسمع مني.. ومش انت اللي هتقتله أنا أعرف ناس تخلص الموضوع دا فيه كمان.
فقد أسفر عن تعامل حازم مع مروجي المخدرات أنه كون علاقات لا بأس بها ببعض المجرمين، فهو على صلة وثيقة بهم ليأتي بما يحتاجه من مخدرات وأحيانًا يأخذ منهم كمية ليست بالقليلة ويبيعها لأصدقائه وبعض معارفه في الخفاء ليربح منها بعض المال (كالديلر).
- انت مالك بتتكلم كدا كأنك متعود على كدا.. وعادي بالنسبة ليك.
- ولا عادي ولا حاجة أنا عايز أساعدك يا صاحبي مش أكتر فكر كدا وهتعرف إن كلامي صح وإن أبو زيد لازم يختفي تمامًا.
- أنا معاك بس مفيش حاجة تانية بدل القتل.
- هو لازم يتقتل عشان يموت السر معاه فهمت؟
هز نادر رأسه موافقًا على الحل الذي اقترحه "حازم".
- من حق انت كنت قلت إن في واحد زميله كان معاه في حريق الشحنة.
- اها.. بس دا ميعرفنيش ولا عمره شافني وميعرفش اسم الشركة حتى.
- إيه اللي مخليك متأكد كدا؟

- أنا سألت أبو زيد قبل كدا وأكد لي إن زميله ميعرفش حاجة.. غير إنه نفذ الحريق معاه وبس.. أما مين اللي اتفق مع "أبو زيد" واداله الفلوس فهو ما يعرفش حاجة.
- تمام كدا يعني لو أبو زيد مات زميله دا ميمثلش خطر عليك.
- آه لأنه ميعرفش حاجة.
- تمام كدا... جهزلي انت بس خمس تلاف جنيه في أقرب وقت عشان الناس دول بياخدوا فلوسهم قبل ما ينفذوا أي حاجة وكلمتهم سيف.
- خلاص هيكونوا جاهزين بكرا.. وهقابلك هنا وأديهملك... تمام؟
- لا أنا هاجيلك على البيت بكرا واخدهم منك... فرفش بقى وفكها شوية.
ارتفع صوت الأغاني بالمكان وعلت معها ضحكتهم وأمضوا الليلة على هذا النحو.

****

على الجانب الآخر كان يجلس أبو زيد مع صديقه إبراهيم وهو مَن نفذ معه الحريق بالميناء وكانا يتبادلان أطراف الحديث حول الظروف التي يمر بها إبراهيم حيث إن ابنه الوحيد محجوز بالمستشفى في انتظار إجراء العملية، فقط يحتاج لثمن العملية لإجرائها لابنه في أسرع وقت ممكن، وبدا تخوف أبو زيد من غدر نادر بأي طريقة من الطرق؛ فواحد يفعل مثل هذه الأفعال مع أخيه ابن أبيه وأمه يمكن أن يفعل أي شيء؛ لذلك قام أبو زيد بإخبار إبراهيم عن هوية نادر وأخبره أنه يحتفظ بتسجيلات مكالماته له على هاتفه المحمول حتى يأمن غدره بعض الشيء وليطمئن قلب إبراهيم، لكنه طمأن إبراهيم بأن المبلغ سيكون معه بأقرب وقت ممكن، لكن لم يكن في توقع أبو زيد أن نادر سيقدم على قتله، وأن نهايته اقتربت وهناك أحد ما في مكان ما يستعد لقتله.

****

صباح اليوم التالي بدأ اجتماع مجلس الإدارة بالشركة وكان يترأس المجلس مصطفى، نادر كان جزءًا من الاجتماع، استمر الاجتماع لأكثر من ساعتين، حيث يتبادل أطراف مجلس الإدارة الحديث حول المشكلات التي تواجه الشركة ويطرحون أكثر من حل لها، ودار الاجتماع أيضًا حول التحديات الحالية وحالة السوق التنافسي في الفترة الحالية والمنافسين، كل هذا يدور في اجتماع ولم يتحدث نادر بحرف فبا له مشغول بأمر آخر؛ فالحضور كانوا بعالمهم وهو بعالم آخر، يفكر في أمر أبو زيد، وهل سيتم الأمر بنجاح وهل هذا صواب أم أنه سيوقع نفسه بمأزق آخر، لكنه تذكر كلام حازم وتفكر به حتى أصبح أكثر اقتناعًا به، فبالفعل أبو زيد سيطمع في المزيد من المال، فهو خبيث والغدر من طبعه فإذا لم يعطه ما يحتاجه، من السهل أن يبتزه بما يعرفه عنه، وإذا أصر نادر على عدم إعطائه المبلغ الذي يحتاجه من السهل أن يخبر مصطفى بما فعله أخوه بسهولة تامة عن طريق مكالمة من أي خط محمول، كل هذا يدور في رأسه بأفكار متتالية وغير متناهية، حتى استيقظ من ثباته وعاد لوعيه على صوت أخيه مصطفى مردفًا:

- نادر. نادر.

- نعم يا أستاذ مصطفى.

كما تعود أن يلقبه عندما يحادثه أمام أعضاء مجلس الإدارة والموظفين بالشركة نظرًا لأنه رئيس الشركة وهذه رسميات العمل.

- مالك.. ما تكلمتش خالص النهار دا وسرحان كدا.

نظر نادر فرأى أن الاجتماع قد انتهى والجميع يجمعون أوراقهم ليذهبوا حيث مكاتبهم، فأجاب في ارتباك:

- ماليش أصلي مصدع شوية بس.
- ما عرفتنيش ليه وكنت هقولك ماتجيش النهاردا.
يجري هذا الحديث بعد أن خرج الجميع من الغرفة.
- مش مستاهلة دا شوية صداع وهيروحوا لحالهم، مجرد إني آخد إسبرينة.
- طب انا عازمك النهاردا.. هتيجي تتغدى معايا في البيت.
صمت نادر للحظة متفاجئًا ثم قال:
- ماهقدرش والله في مشوار لازم أخلصه النهاردا مع اصحابي،
- إحنا ماكلناش مع بعض باقيلنا فترة، ووفاء عاملة الأكل اللي انت بتحبه.. مكرونة بالبشامل وأهو ندردش سوا شوية..
- خليها مرة تانية.. أما النهاردا ماهقدرش آجي والله.. وتتعوض قريب إن شاء الله.
- ماشي يا ندور تتعوض قريب بس ساعتها مفيش أعذار..
- أكيد طبعًا.
- روح ريحلك شوية انت بقى قبل المشوار بتاعك.. وخد أسبرينة للصداع من الصيدلية وانت مروح..
- حاضر... همشي أنا بقى.
- مع السلامة.
مع تقدم نادر بخطواته نحو الباب ليخرج، في هذه اللحظة رن التليفون الخاص بمكتب مصطفى ليستقبل مكالمة من أحد رجال الأعمال قائلًا:
- صباح الخير يا سعد باشا.
- صباح الخير يا درش... في مشروع حلو قوي عايز تدخل شريك معايا فيه.

- لا اعفيني يا سعد بيه... ماهقدرش أدخل في أي مشاريع خالص دلوقتي.
- ليه يا درش كدا مش انت اللي كنت عايز..
قاطعه مصطفى مردفًا:
- انت متعرفش يا باشا اللي حصل.
وأخذ يحكي له الأزمة التي يمر بها بسبب حريق الشحنة بالميناء وضياع ثمنها عليه وذلك لعدم وجود تأمين عليها!
أسرع نادر خطواته البطيئة بعد أن سمع كلام أخيه وهو ينظر له..

****

- ماشي يا ندور تتعوض قريب بس ساعتها مفيش أعذار...
- أكيد طبعًا.
- روح ريحلك شوية انت بقى قبل المشوار بتاعك... وخد أسبرينة للصداع من الصيدلية وانت مروح..
- حاضر... همشي أنا بقى.
- مع السلامة.
مع تقدم نادر بخطواته نحو الباب ليخرج في هذه اللحظة رن التليفون الخاص بمكتب مصطفى ليستقبل مكالمة من أحد رجال الأعمال قائلًا:
- صباح الخير يا سعد باشا.
- صباح الخير يا درش.. في مشروع حلو قوي عايزك تدخل شريك معايا فيه.
- لا اعفيني يا سعد بيه.. ما هقدرش أدخل في أي مشاريع خالص دلوقتي.
- ليه يا درش كدا مش انت اللي كنت عايز.
قاطعه مصطفى مردفًا:
- انت متعرفش يا باشا اللي حصل.
وأخذ يحكي له الأزمة التي يمر بها بسبب حريق الشحنة بالميناء وضياع ثمنها عليه وذلك لعدم وجود تأمين عليها!
أسرع نادر خطواته البطيئة بعد أن سمع كلام أخيه، ثم أغلق الباب وراءه وهو ينظر إليه، ثم سرعان ما أنهى مصطفى المكالمة.

****

رَن هاتف حازم ويظهر اسم نادر على شاشته:
- آلو.. مساء الخير يا صاحبي.
- مساء الفل يا ندورة يا حبيبي.
- أنا جهزت اللي اتفقنا عليه.
- إشطا هعدي عليك كمان شوية.
- تمام.. وأنا مستنيك.. سلام.
- سلام يا صاحبي.

****

يستعد مصطفى ووفاء للذهاب في زيارة لوالدتها ووالدها بصحبة أبنائهما، وهما بمثابة أب وأم لمصطفى ولا يتقمصان دور والد ووالدة الزوجة التقليدي المتسلط الذي نشاهده في أغلب الأوقات.

- يلا يا وفاء عشان مانتأخرش.

- حاضر ثواني بس.

- يلا يا ماما إحنا جهزنا خلاص.

- خلاص أنا جهزت أهو.

- يلا بينا.

قاد مصطفى السيارة متجهًا نحو بيت والد وفاء، التقطت وفاء هاتفها المحمول وأجرت اتصالًا بوالدتها لتعلمها أنهم في الطريق إليهم.

- آلو يا بابا.. ازيك عامل ايه؟

- الحمد لله تمام والله يا بنتي.

- سلميلي على عمي.

- مصطفى بيسلم عليك يا بابا.

فردّ والدها بنبرة تحمل في طياتها كل معاني الودّ والمحبة:

- الله يسلمه ويبارك فيه.

ثم صاح صوت طفولي:

- إزيك يا جدووو.

- وكريم كمان بيسلم عليك هههها... احنا جايين في الطريق.

- تيجوا بالسلامة.. واحنا مستنينكوا.

- بقولك ايه يا بابا... بوسلي ماما لغاية ما آجي هههه

- هاهاها لما تيجي بوسيها انتي.. احنا كبرنا على الحاجات دي يا بنت.. هاهاها.

- باي بقى.

- مع السلامة يا حبيبتي.

- يا سُعاد وفاء ومصطفى والولاد جايين في الطريق.

خرجت الحاجة سعاد من الداخل بوجه سعيد وبشوش:

- يوصلوا بالسلامة.. أدينا مستنينهم.

****

بينما وصل حازم إلى العمارة التي يقطن بها نادر، وما هي إلا لحظات حتى كان أمام باب الشقة، يطرق الباب، فتح نادر الباب مُرحبًا به، ثم جلسا في الصالة معًا يتحدثان حول ما أتيا لأجله، ثم مدّ نادر يده نحو حازم وبها ظرف مردفًا:

- هو دا المبلغ اللي اتفقنا عليه.. والظرف دا فيه كل المعلومات اللي هتحتاجها عنه.

أخذ حازم المال والظرف من نادر، ثم وضعهما في جيبه قائلًا:

- يومين تلاتة وهتخلص من صداع أبو زيد وتضمن سكوته للأبد.

- تمام وأنا هاستنى أعرف منك الخبر.

ظلا يتحدثان ويضحكان، ثم بعد ذلك ذهب حازم ليكمل مهمته.

****

في مساء اليوم التالي وبإحدى الحواري الضيقة وقف حازم بسيارته أمام مقهى شعبي ضيق، ثم تقدم إلى داخل المقهى وجلس على كرسي بإحدى زوايا المقهى، انتظر دقيقة أو دقيقتين قبل أن يأتي أحدهم للجلوس بجانبه، ضخم الجثة ذو وجه مشوه بالندوب، قال له:

- منور يا أستاذ حازم.

- بنورك.

- أؤمر.

ناوله حازم ظرفًا من تحت الطاولة وقال له:

- نص المبلغ دلوقتي.. ونصه بعدها.

- تعليمه ولا أخلص عليه؟

- خلص عليه ماتسيبش فرصة.

- أسهل حاجة.

- وحاجة كمان.

- إيه؟

- اوعى تسيب وراك أي دليل أو أي حاجة تدل عليك وخلي بالك..

- ما تخافش يا أستاذ حازم.. يلا هتكل أنا، وهسمعك خبره كمان كام يوم..

ثم قام الرجل وابتعد، خارجًا من باب خلفي صغير، بينما ظل حازم جالسًا، وطلب واحد شاي.

وفي اليوم التالي، وبينما كان أبو زيد عائدًا لبيته، أسرعت نحو سيارة بدون أرقام وصدمته بأقصى سرعة، فخر أبو زيد صريعًا على الأرض، وبسرعة البرق اختفت السيارة عن أعين الناظرين ولم يظهر من بداخلها.

استيقظ الصباح التالي حازم على صوت هاتفه يرن:
- صباح الخير يا أستاذ حازم..
وبصوت ما زال يستيقظ رد عليه حازم:
- صباح الخير يا سيدي.. هاه طمني عملت إيه؟
- البقاء لله.. الزبون مات.
- تمام.. إوعى تكون سبت وراك أدلة ولا يكون حد شافك.
- لا ماتخافش يا أستاذ حازم عيب عليك.
- تمام قابلني بكرا في نفس المكان اللي اتقابلنا فيه.. عشان تاخد باقي حسابك.
- تمام.. ماشي.
- سلام.
- مع السلامة.
قام حازم بالاتصال بنادر ليُعلمه بخبر موت أبو زيد ليفرحه:
- صباح الخير يا نادر.
- صباح الفل.. خير طمني.
- كل حاجة تمام.. وصاحبك مات خلاص وماعادش هيصدعك تاني.
صمت نادر لبرهة، هل يعقل أن يكون شعر بالذنب ولو للحظات على ما فعله، ثم تابع قائلًا:
- طاب تمام، كويس.
- مالك مش مبسوط ليه، حاسس إن صوتك متغير.
- مافيش، اقفل انت بس دلوقتي.
- ماشي سلام.

رن هاتف مكتب نادر، فوضع السماعة على أذنيه ليسمع مصطفى يقول له:
- نادر تعالى المكتب عشان نخلص شوية شغل.
- حاضر.
بعد أن أنهوا بعض الأعمال، قام مصطفى بتذكير نادر بعيد ميلاد ابنه كريم مردفًا:
- ماتنساش النهاردا عيد ميلاد كريم لازم تيجي.
- هاجي إن شاء الله.. ماتقلقش.
بعد ذلك ذهب نادر إلى مكتبه.

****

التف الجميع حول الطاولة، وفي منتصفها تورتة بها عدد من الشمع المشتعل يعادل عمر كريم، والأنوار مطفأة، والجميع يردد: "يلا حالًا بالًا بالًا حيوا أبو الفاصاد هيكون عيد ميلاده الليلة أسعد الأعياد.."
علا صوت الحضور بمعايدة كريم بعيد ميلاده، والضحك والكلام ملأ أرجاء البيت، بعد إطفاء الشموع وإضاءة الأنوار، وسارت الليلة على هذا النحو حتى انتهت وغادر الجميع سعداء.

****

عند استلقاء الشمس على فراش الغروب، عاد "سامي" إلى بيته بوجه حزين، وهو زميل أبو زيد في العمل وهو مَن نفذ معه حريق الميناء، حزينًا لموت زميله الذي كان سيأتيه بالمال الكافي لإجراء عملية قلب مفتوح لابنه الذي يعاني من ثقب في أوذين القلب، لا يدري ماذا يفعل؛ فالعملية ستكلف ما لا يقل عن أربعين ألف جنيه، من أين سيأتي بهذا القدر الكبير من المال وهو لا يتقاضى من وظيفته سوى ألفي جنيه، وبالكاد تكفي مسئولياته، جلست زوجته بجواره لتحدثه عن حالة ابنه التي تسوء وتذكره بكلام الأطباء وتحذيراتهم بوجوب إجراء العملية في أسرع وقت، لكنه لم يكن ينصت إليها؛ فكل ما كان يشغل ذهنه هو كيف سيأتي بالمال؛ فقد مات من كان يعتمد عليه في أمر تدبير تكلفة العملية،

ثم تذكر فجأة مع اعتداله في مجلسه، أن منذ بضعة أيام استعار أبو زيد هاتفه ليجري مكالمة مع الشخص الذي يُدعى نادر، وهو من الشخص ذاته الذي يطلب منه المال، قبض سامي هاتفه من جانبه، وأخذ يبحث في سجل المكالمات عن هذا الرقم؛ فهو ما زال يتذكر اليوم الذي أجرى فيه أبو زيد اتصاله مع نادر من خلال هاتفه قبل وفاته بيومين، وجد الرقم، بعد ذلك وقف من مكانه ثم خرج عند باب الشقة، وأجرى أول اتصال له بنادر ليطلب منه أن يعطيه المال الذي كان سيعطيه لأبو زيد:

- مساء الخير.

- مساء الخير.

- الأستاذ نادر؟

- أيوا انا.

- معاك سامي محمود .. وانا زميل أبو زيد في الشغل.
- أبو زيد مين؟
- صُدِم سامي من رد نادر غير المتوقع؛ فقد ملأت وجهه علامات الاستفهام والغضب.
- أبو زيد اللي نفذت انا وهو العملية اللي انت طلبتها منه وخد عليها شوية ملاليم.
- أنا ما اعرفش حد بالاسم..
وقبل أن يكمل قاطعه سامي بنبرة حادة صارمة:
- أنا كنت عارف إنك هتلاوع كتير.. خلاصة الكلام أنا عايز الفلوس اللي طلبها منك أبو زيد الله يرحمه قبل ما يموت.. وفي أسرع وقت ضروري عشان انا محتاج أعمل عملية لابني.
وبنبرة وكلمات ساخرة قال نادر:
- انت عبيط يا راجل انت.. وهو أنا أي حد عايز فلوس هاديله.. وانت هاتشحت.
وبصوت عالٍ قال سامي:
- أنا مابشحتش دا حقي نظير الحريق.
- وأنا اديت أبو زيد اللي كنا متفقين عليه.
- دول شوية ملاليم.. وانا دلوقتي عايز أربعين ألف عشان أعمل عملية قلب مفتوح لابني.
وبنبرة غير مبالية بالأمر قال نادر:
- وانا مامعيش المبلغ دا.. وانسى إني ادفعلك المبلغ دا.

- أنا اقدر أبعت التسجيلات اللي معايا لأخوك وهو يتصرف معاك بقى.
ارتبك نادر ثم قال غاضبًا:
- انت بتهددني.. انت لو فكرت تعمل كدا هاقتلك زي أبو زيد.. انت فاهم؟
صُعِق سامي مما سمعه؛ فنادر هو من قتل أبو زيد، فعلًا، فمن يفعل هذا بأخيه ويقتل يستطيع أن يقتل مرة أخرى، فهكذا الأشياء السيئة والشنيعة، تبدأ بشعور من البغض والكره وتنمو حتى تصبح حرائق وجرائم قتل.
ثم بصوت غليظ مكتوم وعينين مفتوحتين عن آخرهما:
- يعني انت اللي قتلت أبو زيد.. طاب بقولك ايه.. أنا معايا تسجيلات لكل مكالماتك مع أبو زيد والمكالمة دي كمان متسجلة.. تسجيل بسيط منهم لو وقع بالصدفة في إيد أخوك هاتبقى نهايتك يا حلو.
كانت هذه حيلة جيدة من سامي فهو لا يملك أي تسجيلات لكنه بالفعل يسجل هذه المكالمة، فهل ستنجح حيلته وتؤتي ثمارها، كان يدرك نادر أن بمقدور سامي أن يفعل هذا، وإن حدث هذا ستتدمر حياته، فكر نادر للحظات ثم قال:
- طب استنى مني اتصال خلال الأسبوع الجاي وإوعى تتصل بي أنا اللي هتصل بيك مفهوم؟
وما كانت هذه المهلة إلا ليُعطي نادر لنفسه وقتًا حتى يفكر في ما سيفعله، أو ما يتوجب عليه فعله.
- اما نشوف.. هو أسبوع واحد.. سلام.
ثم أغلق الخط وبعد أن التفت وجد سامي زوجته في ظهره، وعلى وجهها ملامح الصدمة مما سمعت قائلة:

- انت عملت إيه انت وأبو زيد.. ومين الراجل اللي انت بتهدده دا؟
- ادخلي بس وهفهمك على كل حاجة.

****

رن هاتف حازم مستقبلًا اتصالًا من نادر، حكى نادر كل ما دار بينه وبين سامي من حديث وتهديد، فَردّ حازم بدوره قائلًا:

- انت مش قلتلي إن زميل أبو زيد مايعرفش حاجة عنك؟

- الكلب كان بيكدب عليّ إيه العمل دلوقتي؟

أخذ يفكر حازم للحظات ثم قال مردفًا:

- ولا تشغل دماغك وماتتصلش بيه خالص.. وهو مايقدرش يدي التسجيلات اللي معاه لأخوك دا لو معاه أصلًا لأن هو عايز الفلوس بس عشان يعمل عملية لابنه.. فلو ادى التسجيلات لاخوك مش هايطول ولا مليم ساعتها.. هو هايفكر ألف مرة قبل ما يدي التسجيلات لأخوك لأنه عايز الفلوس بس.. مش عايز يضرك.

- صح انت كلامك صح.

- روق بس.. ولا تشغل دماغك.

- إشطا يا صاحبي.. نتقابل النهاردا بقى.

- إشطا ماشي.. سلام.

- مع السلامة.

****

مر أسبوع ولم يتصل نادر، وسامي ينتظر وهو ينظر إلى ولده ويراه يعاني يومًا تلو الآخر، وليس في وسعه أن يفعل له شيئًا؛ فروح هذا الولد الصغير مرهونة بمبلغ لا يستطيع والده أن يدبره إلا بطريقة واحدة، وهي عن طريق نادر.

مرّ نصف أسبوع آخر ولم يتصل، وسامي أصبح في ريبة من أمره لا يدري ماذا يفعل، وفي ذات ليلة وهو ينتظر اتصالًا من نادر، أخذ يحدث نفسه قائلًا:

- هو نادر دا ممكن ماينفذش اللي اتفقنا عليه ولا إيه؟ طاب أنا لو بعتت التسجيل اللي معايا دا لأخوه ساعتها مهكسبش حاجة.. وماحاخودش ولا مليم.. وأنا عايز الفلوس بس عشان الواد ابني يعمل العملية.. هتعمل إيه يا سامي؟

أخذ يناجي ربه أن يشفي ولده، بعدما أحس بالذنب تجاه ما فعله وأن هذا هو عقاب الله له؛ فصار يدعو ويرجو الله ويقول:

- يا رب اشفيلي ابني يا رب.. هو مالوش دعوة باللي أنا عملته.. دا ذنبي انا يا رب.. يا رب ماتخليش عقابك لي يبقى في ابني يا رب.

ظل هكذا لبعض الوقت حتى أتت زوجته لتحدثه عن حالة ابنه التي تتدهور وتسوء، والذي من الممكن أن يموت بأي وقت، إذا لم تُجري له العملية في أسرع وقت، فقد زادت من حزنه جحيمًا، فلا يدري ماذا يفعل، فليس بوسعه سوى الانتظار حتى يتصل به نادر، وابنه المسكين راقد فوق فراشه لا يستطيع الحركة وقد بدأ العد التنازلي نحو وفاته.

في صباح اليوم التالي حاول سامي أن يتصل بنادر، لكن نادر لم يُجب على أي اتصال لسامي، انزعج نادر من صوت رنين الهاتف؛ فقام بوضع رقم سامي في "البلاك ليست"، وأصبح رقم نادر غير متاح دائمًا أمام اتصالات سامي المستمرة.

ازداد الموقف تأزمًا على سامي، فماذا يفعل هذا المسكين، فمن أين له بأربعين ألف جنيه، لإجراء العملية لابنه، ثم تذكر الحوار الذى دار بينه وبين أبو زيد في الليلة التي كانا جالسين بها معًا، حين استعار أبو زيد منه هاتفه ليحادث نادر، فيتذكر حينما سأل أبو زيد قائلًا:

- ونادر دا بقى يطلع مين؟

فرد أبو زيد قائلًا:

- دا شاب غني.. أخوه صاحب شركة استيراد وتصدير.. وشغال في شركة أخوه.. وهو اللي وزني عشان احرق شحنة أخوه.

- شكله منفسن على أخوه جامد.. وبيكرهه قوي كمان.

- أكيد.. ياخي انا ماشوفتش في حياتي حد بيكره أخوه كدا.

- الواد دا هتلاقيه بيحقد على أخوه.. اسمع مني.

- حقد إيه اللي يخليه يعمل كدا في أخوه.

- بقولك ايه.. هو نادر دا عايش فين بالظبط.

- عايش في شقة طويلة عريضة لوحده.. في شارع عباس العقاد في مدينة نصر.

- انت قلتلي اسمه إيه؟

- نادر الصاوي.
ومن هنا عرف سامي عنوان نادر، فعزم أن يذهب إليه من صباح اليوم التالي ويواجهه وجهًا لوجه.
وفي نهار اليوم التالي توقف سامي بتاكسي في منتصف شارع عباس العقاد، ارتجل سامي من التاكسي، ثم سار نحو مدخل إحدى العمارات الضخمة وسأل البواب هل يعرف شخصًا يقطن في هذا الشارع، اسمه نادر الصاوي؛ فأجابه بلا، ثم أخذ يسأل هذا وذاك حتى أجابه أحد سكان هذه المنطقة مشيرًا بيده نحو إحدى العمارات قائلًا:
- هي دي العمارة اللي هو ساكن فيها.. وهو دا اللي نازل من العربية هناك دا.
- متشكر جدًا يا أخ.
ثم هرع إليه سامي مسرعًا قائلًا:
- الأستاذ نادر الصاوي.
- أيوا أنا.. أي خدمة؟
- أنا سامي اللي كلمتك من أسبوعين.. نسيتني ولا إيه؟
اتسعت حدقتا نادر ثم قال:
- وانت عايز ايه دلوقتي؟
- عايز الفلوس اللي اتفقنا عليها.
- فلوس ايه.. هو انت مفكرني مصباح علاء الدين هاتقولي هات فلوس هاديك.. انت طماع وابو زيد كان طماع زيك.
- الملاليم اللي ادتهالنا انا وأبو زيد الله يرحمه.. ما تساويش ربع العملية اللي

عملناها.. وانا من حقي إني اطلب منك الفلوس دي.
- جاتك كسر حُقك.
بدأ سامي يُهدئ من انفعاله وأخذ يتحدث إلى نادر بلطف لكي يساعده يجري لابنه العملية مردفًا:
- أنا ابني لازم يعمل عملية قلب مفتوح بأسرع وقت.. عشان عنده ثقب في القلب.. ولازمله أربعين ألف جنيه.. أنا ما ماعيش منهم ولا مليم.
وبدأت عيناه تلمعان بالدمع، لكن نادر لم يتأثر قلبه فقال:
- أنا بجد مش هاقدر أساعدك بالمبلغ داكله.. بس خد الفلوس دي.
وفي هذه اللحظة خطر على ذهنه أمر التسجيلات، لكنه طردها عن ذهنه سريعًا، فما يسعه إلا أن يتوسل لنادر ليساعده في إنقاذ ابنه قائلًا:
- أرجوك أنا محتاج الفلوس دي ضروري عشان أنقذ ابني من الموت.. واكتب علي شيكات.
وضع نادر في يد سامي مبلغًا قدره مائتي جنيه، ثم بصوت خلا من كل معاني الإنسانية وحمل في ثناياه كل ما هو خبيث وكريه قائلًا:
- خد الفلوس.. هو دا اللي اقدر اساعدك بيه دلوقتي.
نظر لهم سامي بعين الحزن والحسرة على حاله، وعلى ما ابتلاه. في هذه اللحظة رن هاتفه وكانت زوجته هي المتصلة:
- الحقني يا سامي "يوسف" أغمى عليه ومابيجيبش منطق.. مش عارفة أعمل ايه واروح فين.
توقف العالم حول سامي عندما سمع زوجته، أما نادر صعد إلى شقته غير مبالٍ لأمره، فنطق لسان سامي مردفًا:

- انقليه المستشفى العام دلوقتي حالًا.. وأنا جايلكم في الطريق.
وصل سامي إلى المستشفى العام، صعد حتى وصل إلى زوجته الواقفة وحدها تبكي في منتصف الطرقة المشرفة على غرفة العناية المركزة، فصرخ فيها قائلًا:
- إيه اللي حصل.
فقالت بصوت يغرق ويختنق:
- يوسف مات ياسامي يوسف مات.
جرى إلى داخل غرفة العناية المركزة، كي يرى ابنه لآخر مرة ويحتضنه آخر حضن له، ثم يطبع قبلة على جبينه، ثم أخذ يردد اسمه وهو يتأمل وجهه لآخر مرة، وجه ابنه، ثم أصدر آهات من أعماقه، جلت فيها مرارة الحزن على فراق ولده، يا لها من لحظات عصيبة تمر على الفرد، أن يفارق الموت بينه وبين أقرب الناس إليه وإلى قلبه، والأصعب أن تفارق أقرب الناس إلى قلبك وهم على قيد الحياة.
مر أسبوع على وفاة يوسف ابن سامي، وأثناء أداء سامي لصلاة العصر بمسجد جوار بيته، أخذ يدعو الله أن يسامحه ويغفر له ذنوبه، وأصر أن يصحح من بعض ما فعله من أخطاء، وكان أول شيء فكر به، هو أن يرسل التسجيل الذي لديه إلى مصطفى شقيق نادر، ليُعلمه حقيقة أخيه الشيطان، لكن العقبة التي أمامه هي أنه لا يعرف عن مصطفى سوى اسمه فقط، عندما ذكره له أبو زيد في لقاء سابق بينهما، فلا يعرف عنوان شركته ولا منزله، أخذ يفكر وقال لنفسه:
- بما إن نادر شغال في شركة أخوه يبقى بيروح الشركة كل يوم الصبح.. بس كدا اتحلت، أنا أراقب نادي وأفضل وراه لغاية الشركة.

عزم سامي على الاستيقاظ مبكرًا، ليذهب في صباح اليوم التالي إلى عنوان نادر، نام سامي هذه الليلة وهو مشتاق إلى الاستيقاظ مبكرًا، لفعل ما يرغب في فعله ليرتاح ضميره، حتى لا يشعر بذنب ما فعله طوال حياته.
استيقظ مبكرًا، ذهب إلى عنوان نادر، ثم انتظر أسفل العمارة مختبئًا، حتى لا يراه نادر حين يذهب بسيارته، مر من الوقت ما يقارب الساعة، ثم أخيرًا نزل نادر، قاد نادر سيارته إلى حيث الشركة، أوقف سامي تاكسي متلهفًا ثم دلف إلى داخله قائلًا:
- طير ورا العربية اللي قدامك دي ياسطى ماتسيبهاش.
وصل نادر إلى الشركة، حيث عمله، وسامي وصل معه أيضًا لكن أوقف التاكسي على مسافة كافية لعدم لفت أنظار نادر، انتظر سامي حتى صعد نادر إلى أعلى، ثم توجه سامي نحو الأمن ثم قال لأحد أفراد الأمن:
- لو سمحت انا عايزك تدي الظرف دا لمصطفى بيه صاحب الشركة.
أخذ فرد الأمن الظرف منه قائلًا:
- حاضر.
ثم انصرف.
سامي متجهًا نحو أقرب تليفون عمومي، ليجري اتصالًا بنادر ليعلمه أنه أرسل التسجيل إلى أخيه، حتى يلقى مصيره السيئ الذي يستحقه.

****

وصل سامي إلى كابينة بها تليفون عمومي، ثم اتصل بنادر قائلًا:
- إزيك يا أستاذ نادر.
عرفه نادر من صوته؛ فتفاجأ من اتصاله به، وانزعج من سماع صوته.
- الله يسلمك.
كنت عايز أقولك إن التسجيل مع أخوك وهو بيسمعه دلوقتي.. وأنا ربنا يسامحني على اللي انا عملته.
ثم أغلق سامي الخط، وأسرع عائدًا إلى بيته مرتاح السريرة.

****

فتح السكرتير الخاص بمكتب مصطفى باب المكتب وبيده الظرف، وتوجه بخطواته نحو المكتب الذي يجلس خلفه مصطفى، قائلًا:

- فرد الأمن اداني الظرف دا يا أستاذ مصطفى، وبيقول في واحد جه من شوية وقاله يوصله لحضرتك.

أخذ مصطفى الظرف قائلًا:

- اتفضل انت دلوقتي.

بينما خرج نادر من مكتبه، ثم نظر نحو مكتب مصطفى، بعد ذلك هرول مسرعًا إلى خارج الشركة ثم قاد سيارته مبتعدًا.

خرج السكرتير من مكتب مصطفى، ثم بدأ يمزق مصطفى حافة الظرف ليفتحه، وجد به رسالة صغيرة وميموري كارد، قرأ الرسالة التي كان محتواها: "اسمع التسجيل اللي على الميموري"

أخذ مصطفى الميموري كارد ثم وضعه بهاتفه، وبدأ يسمع التسجيل حتى آخره، كاد يجن مصطفى مما سمعه، واصفرّ وجهه من صدمته في أخيه ابن أمه وأبيه وأخذ يسأل نفسه:

- ليه يعمل فيا كدا أنا عملت فيه إيه؟ ليه الأخ مايحبش الخير لأخوه ليه؟ ليه بيكرهني الكره دا كله ليه؟

- ثم التقط هاتفه وقام ليجري اتصالًا بنادر، لكن نادر لا يُجيب. فلماذا سيُجيب وماذا سيقول له، وقف مصطفى من مقعده وذهب إلى خارج الشركة، ثم قاد سيارته هائمًا لا يعلم إلى أين يذهب، لا يدري بالعالم من حوله، غلبه بكاؤه، أخذ يطرق بيده على دركسيون السيارة غضبًا، وحاول أن يتصل بنادر أكثر من مرة لكنه أصبح غير متاح، لا يدري مصطفى ماذا

يفعل بأخيه، هل يسجنه، أم يفعل به ماذا، وعاودت الأسئلة تتوغل في رأسه مرة أخرى، زاد مصطفى من سرعة سيارته، وهو لا يدري بما يجري حوله، فلا يسمع سوى صوت السيارات يرن في أذنيه، حتى وصل إلى تقاطع طرق ولم يهدئ من سرعته؛ فلم يشعر بنفسه إلا وهو يصطدم بقوة بسيارة نقل كبيرة، اصطدمت رأسه بزجاج السيارة، وتهشمت عظامه، تجمع الناس وتجمعت السيارات حول الحادث للمساعدة، وتم نقله سريعًا إلى أقرب مستشفى لمكان وقوع الحادث، أحد أطباء المستشفى تعرف على مصطفى، فهو صديق قديم لنادر وكان معه رقم هاتف نادر، حاول الاتصال به لكنه غير متاح، فذهب سريعًا إلى قسم الاستقبال وأعطاهم رقم نادر، وطلب منهم الاتصال بهذا الرقم مرارًا وتكرارًا حتى يجيب، ويخبروه بأن أخاه مصطفى في المستشفى إثر حادث اصطدام.

بينما مصطفى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وهو فاقد الوعي تمامًا، حاول الأطباء إنقاذه، لكن نفذ الأمر ولفظ مصطفى آخر أنفاسه.

****

أخيرًا أعطى رقم نادر جرسًا، فسمع صوتًا يقول له:
- أستاذ نادر؟
- أيوا أنا نادر.
- الأستاذ مصطفى أخو حضرتك عمل حادثة.. وهو دلوقتي في مستشفى مدينة نصر.
انتابه الفزع والقلق مما سمعه:
- انت بتقول ايه، طب انا جي حالًا.
ثم أغلق الخط وتوجه بسيارته نحو المشفى، وهو يتصل بزوجة أخيه قائلًا:
- انت فين دلوقتي.
- انا في البيت.. خير يا مصطفى في إيه؟
- مصطفى عمل حادثة وهو دلوقتي في مستشفى مدينة نصر.
تغير لون وجهها وانفجر صوتها صارخًا:
- أنا جاية حالًا.
أغلقت الخط وهي تكرر:
- استر يا رب.. استر يا رب.
وصل نادر بسيارته إلى المستشفى قبل وفاء، وهم مسرعًا إلى داخل المستشفى، سأل في الاستقبال عن أخيه الذي نقل إلى المستشفى إثر إصابته في حادث، فأخبروه أنه في غرفة العمليات. هم مسرعًا نحوها، وجد الطبيب يخرج من غرفة العمليات؛ فانطلق نحوه يسأله عن حالة أخيه قائلًا:
- طمني يا دكتور حالة مصطفى عاملة إيه دلوقتي؟
- انت أخو اللي جوا.

أومأ برأسه مردفًا:
- إيه يا دكتور أنا أخوه.
نظر الطبيب إليه بحسرة مربتًا على كتفه قائلًا:
- البقاء لله.. شد حيلك.
وكأنما أصابته صاعقة من السماء، وقف ساكنًا غير مستوعب ما سمعه وبدأ يبكي على وفاة أخيه، الذي كان يهرب منه منذ قليل والآن يبكي عليه، فيا لها من دنيا وحياة، فقد أعطت الدنيا نادر فرصة أخرى لتصحيح مساره ومسلكه الذي يسلكه فهل سيتعظ؛ فمنذ قليل كان على حافة الهاوية، وكُشِف أمره لأخيه، وكانت حياته على حافة الدمار.
بينما وصلت وفاء بسيارتها إلى المستشفى، وخلال لحظات كانت أمام نادر، نظرت إليه وهي بالكاد تتنفس، رأته يبكي وهي أيضًا بدأت في البكاء وسألته:
- مصطفى حالته عاملة إيه دلوقتي.. رد عليّ.
وهو بصوت مختنق غارق في الحزن أجابها قائلًا:
- مصطفى مات يا وفاء.. مات.
سقطت على الأرض مسندة ظهرها إلى الحائط، وعيناها تنهمران في البكاء والعويل؛ فمن الصعب وصف إحساسها في هذه اللحظة، لقد فقدت الزوج والحبيب والفرح والسعادة، فكان بكاؤها يصرخ وقلبها يصرخ وجسدها يصرخ في آنٍ واحد صرخة لم يسمعها أحد، فما داعي أن يصرخ فمك وقلبك لم يبكِ ويصرخ؟!
وصلوا بجثته إلى المقابر حيث مثواه الأخير، وصوت الشيخ يخطب أثناء الدفن، والجميع حزين على فراق صديق وأخ نبيل وطيب القلب مثل

مصطفى، انتهت مراسم الدفن، ورجعت وفاء إلى بيتها في التجمع الخامس، تنظر إلى زوايا البيت حيث كان يجلس مصطفى، متذكرةً كلامه وضحكاته وحنانه ولمساته، وتبكي بحرقة على حبيبها الذي لن تشاهده مرة أخرى سوى في الأحلام، ثم أتى ولداها كريم وأحمد وهما يبكيان ويسألانها:

- هو احنا معدناش هنشوف بابا تاني يا ماما.

ردت عليهما وهي تمسح دمعها عن خديها قائلة:

- بابا راح عند ربنا.. وهو دلوقتي في مكان أمحمود بكتير.. مش انتوا بتحبوا بابا ؟

- أيوا بنحبه.

- خلاص ماتعيطوش.. عشان هوا بيزعل لما تعيطوا.

مر أسبوعان على وفاة مصطفى، وبدأت وفاء تتعود على عدم وجوده مع مرور الوقت، لكنه سيظل محفورًا بقلبها مهما طال الزمان، أما نادر فحزنه كان حزنًا عابرًا، فهو بداخل قلبه يحمد الله أن هذا حدث بعدما عرف أخوه بأمره.

الشركة بدون مدير، تحتاج إلى مدير يديرها، فذهب نادر إلى وفاء ليخاطبها في هذا الشأن وطلب منها أن تأتي لإدارة شركتها هي وأولادها، بعد وفاة زوجها فهم الورثة الشرعيين له، ذهبت معه إلى الشركة وحاولت أن تتقمص دور المديرة لكن، هناك أمور كثيرة كانت لا تعرفها عن طريقة إدارة الشركة، وهي ليست لديها خبرة في هذا المجال، ولم تكن مستعدة لذلك، ولا تدري ماذا تفعل، في هذه الأحيان أتى المحامي الخاص بمصطفى وهو "خالد بهنسي" إلى الشركة لتقسيم الميراث، فجلس مع نادر ووفاء ليقسموا الميراث فقال:

- دلوقتي الأستاذ مصطفى مات الله يرحمه.. ولازم نوزع الميراث حسب شرع ربنا على الورثة الشرعيين.. وانتوا الورثة الشرعيين.. وأولاده كريم وأحمد.

نظر نادر ووفاء بعضهما لبعض ثم قالت وفاء:

- ماشي قسم يا أستاذ خالد الميراث..

وعرف كل واحد نصيبه.. وكل واحد بنصيبه هيبقى شريك في الشركة والمصنع.. ولا انت عايز تاخد نصيبك فلوس يا نادر؟

- لا لا كل واحد يبقى شريك في الشركة بنصيبه... ويا ريت تخلص الإجراءات بسرعة عشان تعرف كل واحد نصيبه.

ثم قال نادر لوفاء:

- أنا شايف إدارة الشركة صعبة شوية عليكي... صح؟

- آه فعلًا أنا ماليش خالص في إدارة الشركات... أنا بفكر أعين مدير يدير الشركة.

- ونجيب مدير ليه أديرها أنا... الحمد لله أنا أقدر أديرها بحكم خبرتي في المجال.

أومأت وفاء برأسها موافقة على ما قاله نادر قائلة:

- خلاص تمام... اتحلت كدا.

- اعمليلي انتي بس توكيل عام عشان اعرف أديرها براحتي.. وانتي اقعدي معززة مكرمة في بيتك وكل شهر هايجيلك كشف بإيرادات الشركة ونصيبك من الأرباح.. تمام؟

- ماشي.. تمام.

أجرت وفاء توكيلًا عامًا لنادر، وما كانت هذه إلا خدعة من نادر، ليأخذ حريته في التصرف في ممتلكات زوجة أخيه وأبنائه، وليس لأنه خائف على مصلحة الشركة، فماذا سيفعل هذا اللعين وماذا يدور داخل ذهنه الخبيث.

****

مر أول شهر على إجراء التوكيل لنادر، ولم تذهب وفاء إلى الشركة؛ فهي واثقة في نادر، والشيطان يلعب في رأسه دون توقف، يفكر ماذا في وسعه أن يفعل بهذا التوكيل العام، فالأناس مثل نادر نفوسهم ضعيفة لا يقنعون مهما استزادوا فهم عطشى للمزيد، دون المبالاة بأي طريقة، شرعية كانت أم غير شرعية، عرف الطمع طريقه إلى نادر، فاقترح عليه فكرة شيطانية، مُصورًا له أنها فرصته الذهبية نحو الثراء والاستمتاع.

قام بزيارة لبيت أخيه مصطفى ليرى الأولاد، ويعطي وفاء نصيبها من الأرباح هذا الشهر، وليريها أيضًا كشف الإيرادات، أخذ يلعب مع الأولاد قليلًا، ثم ألحت وفاء عليه ليتناول معهم الغداء لكنه أبى واعتذر، وتركهم يتناولون الغداء ثم ودعهم وغادر، والمساكين لا يعلمون أنها آخر مرة سيرونه فيها.

****

قامت والدة وفاء بالاتصال بها لدعوتها للغداء وقضاء يوم الغد معها ومع والدها هي والأولاد:

- آلو صباح الخير يا وفاء.

- صباح الخير يا ماما، عاملة إيه؟

- الحمد لله.. انت عاملة إيه؟

- تمام والله يا ماما الحمد لله.

- بقولك ايه.. بكرا تجيبي الولاد وتيجي تقعدي معانا طول اليوم.. ماشي.

ابتسمت وفاء وكأنها تقول هذا ما كنت أريد أن أقوله، فردّت قائلة:

- حاضر يا ماما.. هاجيب الولاد وأجيلكم بكرا الصبح إن شاء الله.

وأخذا يتحدثان حول بعض الأمور التي تخص الميراث والشركة ونادر، وحول ظروف الحياة، خاصة بعد وفاة مصطفى.

****

شرع نادر في تنفيذ خطته الخبيثة، فبدأ يبيع ممتلكات وفاء التي ورثتها عن مصطفى، بدأ بإجراءات بيع المصنع ثم الشركة، وكل ما كان يملكه شقيقه مصطفى قبل وفاته.

وذات صباح تلقى اتصالًا من صديقه حازم الذي بدأ قائلًا:

- فينك يا عم نادر من يوم ما أخوك مصطفى اتوفى الله يرحمه.. ما سمعناش صوتك ولا قعدنا مع بعض.

- معلش والله مشغول اليومين دول يا حازم شغل الشركة واخد كل وقتي.

- الله يسهلك يا عم خلاص بقيت مدير الشركة.. العملية ماشية تمام.

- انت هتقر ياض ولا ايه؟!

- قّر إيه ياض دا احنا أخوات.

- حبيبي... بقولك إيه اقفل دلوقتي عشان مشغول وهكلمك أنا بعدين سلام.

- سلام.

أتم نادر إجراءات بيع المصنع والشركة وكل شيء يخص الشركة في السوق وقبض ثمنه، دون أن يعلم خالد بهنسي المحامي ووفاء بالأمر، قام بتحويل جميع الأموال إلى حسابه في سويسرا، قد أجراه سابقًا، وقبل أن ينتهي الشهر، ودون أن يعلم أحد سافر نادر، دون أن يعلم أحد إلى أين سافر، اختفى نادر فجأة، لم يعد يجيب على اتصالات وفاء المستمرة به، وهي تحاول الاتصال به مرارًا وتكرارًا لكن الرقم أصبح غير متاح، قلقت وفاء، وذات صباح ذهبت إلى الشركة، لتطمئن، قام أفراد الأمن بالترحيب بها مضيفين:

- انتوا بعتوا الشركة ليه يا هانم؟

- شركة إيه اللي اتباعت.

ابتسمت ساخرة دون الإصغاء لكلامهم، ثم انطلقت داخل الشركة، قام أحد موظفو الشركة بالترحيب بها قائلًا:

- ازيك أستاذة وفاء.

- الله يسلمك.

- انتوا بعتوا الشركة ليه يا أستاذة وفاء؟ كانت حاجة مفاجئة لكل الموظفين اللي في الشركة.

- شركة ايه اللي اتباعت.. انت بتقول ايه؟

- أيوا يا فندم انتوا بعتوا الشركة.. ومالك الشركة دلوقتي هو سليمان بيه.

نظرت له وفاء نظرة ذُعر وامتلأ وجهها بعلامات الذهول والوجل وقالت:

- مين اللي باعها؟ وإمتى؟

- الأستاذ نادر اللي باعها الأسبوع اللي فات وباع كمان المصنع.. أنا سمعت إن حضرتك عاملاله توكيل عام.

بنبرة كلها غضب وذهول قالت:

- انت متأكد من الكلام اللي انت بتقوله؟

- آه طبعًا متأكد، وهي دي فيها هزار؟

شعرت وكأن الأرض تتحرك من تحت قدميها، لم تعد تقوى قدماها على حملها، فهي بالكاد تشعر بأصوات حولها، وشعرت بالدوار، وفجأة سقطت وأظلمت الدنيا من حولها:

- أستاذة وفاء أستاذة وفاء.

كانت هذه الكلمات آخر شيء تسمعه.

استعادت وعيها وفتحت عيناها، ثم تفحصت بهما الغرفة ثم نظرت حولها.
رأت والديها حولها وولديها، قائلة:
- أنا فين؟
فرد عليها والدها وقال:
- في المستشفى.
- إيه اللي حصل يا وفاء؟
نظرت وفاء أمامها متذكرة ما حدث قبل فقدانها الوعي، وجرت دموعها تسقط من عينيها.
- إيه اللي حصل يا وفاء؟
- نادر باع كل حاجة يا بابا.. باع الشركة والمصنع بالتوكيل اللي عملته ليه من غير ما يقولي.. وبرن عليه دايمًا غير متاح.
في وسط ذهول ومفاجأة والديها مما يسمعانه، فلم يكونا يتوقعان أن يفعل نادر هذا، فقال والدها:
- الكلب أكيد خد الفلوس وهرب.
- ربنا يستر.. انت النهاردا إن شاء الله تروح على بيت نادر وتشوفه.. عمل كدا ليه.
- دا لو لقيته أصلًا.
ثم بكلمات وجِلة وبحلق قلِق قالت الحاجة سعاد:
- يا رب تلاقيه.. استر يا رب.
ذهب الأستاذ يحيي والد وفاء إلى عنوان نادر، وصعد إلى شقته، وأخذ يضرب الجرس، مرارًا وتكرارًا، لكن لم يجب أحد، نزل إلى بواب العمارة وسأله

قائلًا:
- ما تعرفش نادر اللي ساكن في الدور التالت راح فين؟
- الأستاذ نادر سافر يا باشا.
- سافر إمتى؟
- من خمسة أيام.
- ما تعرفش سافر فين؟
- لا والله ما اعرف يا باشا، أي خدمة أقدر أعملهالك؟
- لا متشكر جدًا.
مشى والد وفاء وهو يقول في نفسه:
- حظك وحش يابنتي.. تطلعي من حزن لحزن تاني.. ومن مُصيبة لمُصيبة.. والكلب نادر ماكنتش أتوقع منه كل دا.. ازاي أخ يسرق فلوس ولاد مرات أخوه وأولاد أخوه ويهرب كدا.. خسيس، ربنا ينتقم منه.
وصل إلى المستشفى، وعلى وجهه علامات حزن وخيبة أمل، ثم قابل الطبيب وهو في طريقه إلى الغرفة التي توجد بها بنته وأولادها وزوجته، فسأله قائلًا:
- لو سمحت يا دكتور أنا والد وفاء اللي في الأوضة اللي انت لسا خارج منها دي.. هي ها تقدر تخرج من المستشفى إمتى؟
- تقدر تخرج بكرا إن شاء الله.. حالتها اتحمود ت الحمد لله.
شقت ابتسامة خفيفة وجه الأستاذ يحيى، لكن سرعان ما ذبلت قائلة:
- شكرًا يا دكتور.
ثم توجه إلى الغرفة التي بها ابنته بحالة صمت حزين جاهلة ماذا تفعل، تنتظر

والدها بالأخبار، فما لبث أن دخل والدها الغرفة حتى سألته قائلة:
- عملت إيه يا بابا.. لقيته؟
تحدث والدها بعد أن جلس مردفًا:
- نادر سافر.
وبنبرة مشحونة بالحزن والهم والأسى قالت:
- سافر ازاي والفلوس.. يعني خد كل حاجة وهرب؟
- ما تخافيش أنا هاكلم الأستاذ خالد المحامي ونشوف هانقدر نعمل إيه.
ثم عم الصمت الغرفة لوقت، ثم شق هذا الصمت دعوة خرجت من حلق وفاء قائلة:
- ربنا ينتقم منك يا نادر.
فهم ما زالوا غير مستوعبين كيف يفعل أخ هذا في أولاد أخيه وأرملته؛ فلم يكن من المتوقع إطلاقًا أن يفعل نادر ما فعله، ألم يخطر بباله قط كيف سيعيش أولاد أخيه؛ فهو إنسان بلا مبادئ، مغرور لا يفكر سوى بنفسه فقط، لا يهمه سوى إشباع متعه وملذاته، حتى ولو على حساب الآخرين وبالتعدي على حقوقهم.
في اليوم التالي عادت وفاء إلى بيتها بصحبة ولديها، ثم بعد ذلك ذهبت مع والدها إلى خالد بهنسي المحامي، الذي تفاجأ بعدما عرف ما فعله نادر، لكنه أبدى عدم تفاؤله، لكنه وعدهم ببذل قصارى جهده لإعادة المال لهم.

****

بدأ أول خطواته للاستقرار بشراء منزل بأحد الأحياء الهادئة الراقية، ثم أخذ يفكر مليًا، كيف يستثمر برأس ماله الذي سرقه، لينمو رأس ماله، ويكون الثروة الطائلة التي طالما حلم أن يكونها، فقرر نادر عدم إهدار المال والاستمتاع به فقط، بل قرر أن يكون رجل أعمال ناجح ويبني ثروته الخاصة، فبدأ أول خطواته بشراء أحد الفنادق متوسطة الشهرة في ميلان؛ فكان هذا أول استثمارٍ له، قبل أن تكبر ثروته ويتوجه للاستثمار في مجالات عديدة.

****

بدأ خالد بهنسي ووفاء أول إجراءاتهم في القضية؛ فقاموا برفع قضية على نادر، بتهمة سرقته أموالها وهروبه إلى خارج مصر، لكن إلى وجهة غير معلومة، فقامت الشرطة بدورها، بالبحث عن اسمه في أسماء المسافرين من مصر خلال الأسبوع ونصف الماضيين، فعلموا أن وجهته كانت تركيا، وهنا كانت المشكلة، فقد توترت العلاقات بين مصر وتركيا، مما يجعل إصدار قرار بالقبض عليه مستحيل في الوقت الحالي ولا يدري خالد المحامي ماذا يفعل، وأدى ذلك إلى إيقاف القضية إلى حين تعود العلاقات بين مصر وتركيا إلى سابق عهدها، حتى تستطيع الشرطة المصرية اتخاذ قرار القبض على نادر بمساعدة الشرطة التركية وترحيله إلى مصر، لكن كي تعود العلاقات بين الدولتين إلى الأفضل، قد تستغرق شهورًا وربما سنين كثيرة.

وبمرور الوقت قد نفد المال من حساب وفاء بالبنك، ولا تجد من أين ستدفع أتعاب خالد المحامي، اقترح عليها والديها بأن تبيع منزلها وتأتي للعيش معهم في بيتهم، فما كان أمامها إلا الموافقة؛ فالوضع يضيق عليها، وهي تحتاج إلى المال، فانتقلت للعيش في بيت والدها بصحبة ولديها، المسكينين، فهما ليس بيدهما شيء سوى الحزن لحزن والدتهما، التي تفكر كيف ستنفق على ولديها والمال الذي لديها سيأتي يومًا وينفد.

****

مر عام وقرر نادر الزواج من امرأة تركية، وكبرت ثروته مع مرور للوقت، وبدأ بشراء أسهم في شركات عديدة بأمواله.
وصار شريكًا في أكثر من شركة كبرى في تركيا، وأصبح يملك العديد من الفنادق الكبرى بتركيا، وأخدت تنمو ثروته يومًا بعد يوم، وينمو معها خوفٌ بداخله، يقول له:
- إيه اللي هايحصل بعد كدا؟ كونت ثروة كبيرة واتجوزت واحدة جميلة وخلّفت.. واتنعمت في الدنيا على حساب ولاد أخوك وأمهم وسبتهم يعانوا من ظلمك ليهم.. استنى بقى انتقام ربنا منك.
فكان دائمًا وفي كل لحظة سعادة، خائف أن يأتيه عقاب الله على ما فعله، فكان يسأل نفسه كثيرًا:
- ممكن ييجي يوم ويزول كل النعيم اللي انا فيه دا؟
لكن مرور الأيام كان ينسيه.

****

فقدت وفاء الأمل في استرجاع أموالها وأموال ولديها من نادر، لقد أنفقت الكثير على أتعاب المحامي دون جدوى، ولم تعد تقوى على دفع أتعاب للمحامي؛ فقامت بالتخلي عن القضية، وترجت من الله أن يعوضها وأولادها خيرًا، فلم يكن على وجه الأرض من يحمل همًا وحزنًا مثلها، فمن ثراء وبيت كبير وزوج طيب القلب، صادقٍ وعطوف، إلى فقدان كل هذا في وقت وجيز، فزوجها مات والأموال سُرِقت والبيت بِيعَ، فلم يعد لها سوى والديها وولديها وسيارتها وقدر قليل من المال؛ فهذا ليس من السهل أن يتحمله المرء، لكنها كان لديها إرادة وعزيمة لتواصل الحياة، لتربي ولديها وتعلمها؛ ففكرت في أن يكون لها مصدر دخل يأتي لها بالمال؛ لأن المال الذي بحوزتها سينفد بعد فترة ليست بالطويلة؛ ففكرت بفتح متجر صغير لبيع الإكسسوارات وحقائب للسيدات، قامت وفاء ببيع سيارتها، لتستطيع فتح هذا المتجر والإنفاق على ولديها وعلى نفسها؛ فوفاء التي لم تعمل قط في حياتها بمتجر، تجبرها الأيام القاسية على العمل؛ فهذه هي الحياة إذا لم يكن لديك الشجاعة لمواجهة مشاكلك، ستغرق في بحرها، فما أقسى الأيام إذا كشرت لك عن أنيابها، فكان هذا اختبارًا صعبًا من الله لوفاء هل ستجتازه أم لا، لكن كان بداخلها صوت يطمئنها أن الله يخبئ لها شيئًا سيثلج صدرها يومًا ما وعلى هذا الأمل هي عائشة، فثقتها الكبيرة في الله كانت تعطيها الأمل وظلت متمسكة به، رغم مرور السنين ظل لديها يقين أن الله سيرجع لها حقها وحق أولادها؛ فليس مع الله مستحيل.

بعد مرور خمسة عشر عامًا، قد كبر كريم وأحمد الأخوين، وصار وجه أمهما مليء بالتجاعيد بفعل السن والهموم؛ فقد قاست في حياتها بعد موت زوجها كثيرًا، لكنها استطاعت أن تربي ولديها تربيةً محمود ة في بيت جدهما، حتى صاروا رجالًا؛ فقد أنهى كريم تعليمه الجامعي، بينما أحمد ما زال بعامه الثالث الجامعي، أما وفاء فما زالت تدير متجرها الصغير الذي يدر عليهما دخلًا يكاد يكفيهما.

أما على الجانب الآخر؛ فنادر أصبح من أكبر رجال الأعمال بتركيا؛ فثروته الآن أضعاف أضعاف المال الذي أتى به من مصر، أصبح أولاده بعمر الخامسة عشرة، قرر نادر أخيرًا أن يعود إلى مصر فقد حن إلى شوارعها وجوها، وأراد أن يعيش أولاده في مصر؛ فبدأ في نقل البزنس الخاص به إلى مصر، ثم نزل إلى مصر وحده، وقام ببناء قصر فخم بمدينة التجمع الخامس، وقام بنقل كل أعماله إلى مصر، وجهز كل شيء لاستقبال أسرته ليستقروا بمصر، ثم أرسل لهم أن يأتوا بأول رحلة قادمة إلى مصر، وذهب نادر بنفسه إلى المطار بسيارته لاستقبال زوجته وأولاده الثلاثة، ركبوا السيارة وقاد نادر السيارة متجهًا إلى قصره الذي شيده في التجمع الخامس ليستقر به هو وأسرته، وهم في الطريق إلى القصر أثناء مرورهم بالطريق الدائري، اصطدموا بحافلة نقل كبيرة اصطدامًا قويًا جدًا، أدى إلى تقلب السيارة عدة مرات قبل أن تشتعل بمن فيها، في غضون دقائق كانت عبارة عن خردة، أما نادر وأسرته فقد تبخرت أجسادهم فلم يعد لها أثر سوى بعض العظام المتفحمة؛ فقد كانت النار قوية بما فيه الكفاية لتحويل السيارة إلى مجرد خردة معدنية،

فهل هذا ذنب ما فعله مع أخيه، أم ذنب تدبيره لقتل أبوزيد، أم سرقته لأموال أخيه بعد وفاته وظلمه لوفاء ولولديها، أم دعوة وفاء عليه، عندما قالت: "ربنا ينتقم منك يا نادر".

ففي غضون لحظات، انتهى كل شيء، ولم يأخذ نادر شيئًا معه سوى أعماله التي فعلها فقط؛ فذهب النعيم والثروة وماتت أسرته معه في غمضة جفن؛ لأن الله أراد أن يرجع الحق إلى أهله كاملًا؛ فكان هذا شر الانتقام من إنسان انساق خلف رغباته فقط، وفي غضون دقائق أتت الشرطة وعاينت الحادث، وبعد التحريات عرفت الشرطة أن من توفي في الحادث هو رجل الأعمال نادر الصاوي، ثم بحثوا عن الورثة الشرعيين له لغلق هذه القضية، وجدوا أن زوجة أخيه سبق أن رفعت عليه قضية بسرقته أموالها وأموال أولاد أخيه الذي توفي منذ خمسة عشر عامًا، وهرب إلى خارج مصر، قامت الشرطة باستدعاء وفاء وأولادها الاثنين لتسلمهم أموالهم التي سلبت منهم؛ فقد عوضهم الله بقصرٍ فاره، وثروة طائلة اجتهد نادر في تكوينها حتى يعوض الله بها وفاء وأولادها خيرًا؛ فقد عانوا من ظلم نادر لهم بما فيه الكفاية، لكن نادر لم يكن يعلم أنه يستثمر ويكبر الثروة حتى تعود إلى أصحابها بالفوائد الكثيرة، وفي النهاية عادت لأصحابها بالفوائد، فهم أصحاب المال.

فاجتمعت وفاء بأولادها قائلةً لهم:

- شفتوا حقنا رجع لينا ازاي.. لأن الظالم مهما ظلم ومهما كان نفوذه وثروته.. فربنا بينتقم منه شر انتقام.. ومهما طال الزمن مسير الحق يرجع لأصحابه.

السلطان

جالساً على فراشه لا يقوى على القيام، بدأ يتذكر الأحداث والأشياء المهمة، وكل ما مر به طوال حياته، بعينين حزينتين دامعتين، وملامح متأثرة، كأنه يحتضر.

هو يتذكر يوم وفاة والده، عندما كان في العاشرة من عمره، يتذكر حزنه عليه وكيف تحملت أمه وحدها مسئولية تربيته هو وأختيه والإنفاق عليهما، وكيف كانت تعمل وتكد من أجلهما وللإنفاق عليهما، وسرعان ما تملك منها المرض فجأة، وتوفت بعد وفاة والده بستة سنوات، وتحمّل هو مسؤولية نفسه وأختيه، حينها كان هو في سن السادسة عشرة من عمره، أما أختاه حنان ومنار، الأولى إحدى عشرة سنة والأصغر ثماني سنوات.

فكان أول عمل له في مشوار كفاحه، الذي بدأه مبكرًا، بائع في أحد محلات الملابس، ليستطيع الإنفاق على أختيه وتوفير مصاريف تعليمهما؛ فقد عزم على تعليمهما وأبي ألا يتعلما، وبعدها تغيرت عليه الأعمال؛ فقام بالعمل في المطاعم والكافيهات ومحلات الأحذية؛ فكان يتقن عمله ويقوم به على أكمل صورة لذلك كان يحبه أصحاب العمل، وكان يحبه الناس في أي مكان يذهب للعمل فيه، لجده وإخلاصه وأمانته وطيبة خاطره؟

فهو يتذكر يومًا عندما رأى زميله في العمل بمتجر الملابس وهو يسرق من ثمن بيعه لبنطال لأحد الزبائن، ولم يعط مالك المتجر الثمن الذي قبضه كاملًا، وكان هذا الشاب صديقه، رغم ذلك ذهب سالم وأبلغ مالك المتجر عما فعله

زميله بالمتجر، ومالك المتجر بدوره تأكد مما فعله ذلك الشاب، ثم قام بطرده، ومن حينها كبر قدر سالم عند مالك المتجر وكان يأتمنه على أموال المتجر.
أحب سالم أختيه كثيرًا فهو من قام بتربيتهما؛ فكان يأتي لهم بكل شيء يرغبون به على قدر استطاعته، أحبه الناس والجيران فكان طيب القلب ويُحَب من مجرد الحديث معه؛ فالجميع ينظر إلى ما يتحمله من مسئولية على عاتقه؛ فكانوا يقدمون له المساعدة؛ فهو يتذكر نظرة العطف والود تلك التي كان يراها في كل عين تنظر إليه؛ لكنه استطاع أن يثبت أنه على قدر المسئولية وأكثر.
فهو أيضًا يتذكر حين قال يومًا لمالك متجر الملابس الذي كان يعمل به في صغره، أنه يريد أن يفتتح متجر ملابس كبير مماثل للمتجر الذي يعمل به، فرد عليه مالك المتجر بابتسامة عريضة:
- إن شاء الله تفتح محل أكبر منه.
ونظر له متوسمًا فيه خيرًا، متوقعًا له مستقبلًا مليئًا بالنجاح، وذلك لما رآه في عيني سالم من طموح وأحلام مشتعلة ومتوهجة.
فكان يرغب سالم في أن يفتتح متجره الخاص؛ فأخذ يعمل ويجمع الأموال ويدخرها، حتى يستطيع جمع مبلغ افتتاح متجر الملابس الخاص به.
فسالم يتذكر يوم افتتاحه متجره الذي سماه "السلطان" كما يطلق عليه أصدقاؤه منذ صغره، استطاع سالم أن يُكبّر متجره شيئًا فشيئًا حتى صار كما يريد، ثم افتتح فرعًا آخر يحمل نفس الاسم، وبذلك استطاع أن يحقق حلمه، بإرادته وعزيمته رغم ما عانى منه والظروف الصعبة التي مرّ بها، والمسؤولية الملقاة على عاتقه. استطاع سالم أن يزوج أختيه، فهو يتذكر جيدًا دموع فرحته بهما في ليلة زفاف كل واحدة منهما؛ فلم يكن يدري أيبكي فرحًا أم

حزنًا؛ لعدم وجود أمهم وأبيهم معهم في هذه الليلة، أم يطمئن لأنه استطاع أن يؤدي أمانته تجاه أختيه، ونجح في تحمل المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه منذ صغره.

يتذكر سالم يوم زفافه على نادية، التي أدرك حبها له كثيرًا بعد الزواج؛ فهو في البداية لم يكن يحبها، فكان يحب أخرى، لكنه لم يستطع الزواج منها لأنها لم تنتظره، حيث أخذ عهدًا على نفسه ألا يتزوج حتى يزوج أختيه، ويراهما في بيتيْ زوجيهما.

لكن الله رزقه بزوجة صالحة تحبه وترعاه.

ثم أتى اليوم الذي اكتشف فيه مرضه؛ فبعد زواجه بعامين، وأثناء ممارسته رياضة الجري، الذي كان يداوم على ممارستها، شعر سالم بألم في حلقه، فذهب إلى الطبيب ليقوم بفحصه؛ فطلب منه الطبيب إجراء أشعة، وبعد أن نظر الطبيب في الأشعة تأكد من شكوكه؛ فظهرت على وجهه علامات الحزن، فسأله سالم بقلق:

- خير يا دكتور طمني إيه اللي ظاهر في الأشعة.

- انت عندك سرطان في الغدد الليمفاوية وباقيله فترة كمان.

يتذكر سالم كيف كانت حالته عند سماعه هذا الخبر من الطبيب؛ فقد أصبحت الدنيا في عينيه عبارة عن خطوط سوداء، وخيم الحزن على قلبه، ويتذكر أيضًا عندما أخبر زوجته بأنه مريض بالسرطان، المسكينة صارت تبكي دون انقطاع؛ فهي تعرف أنه لا أحد ينجو من هذا المرض الخبيث، ويذكر حينما أتت له زوجته بمجموعة من الأعشاب وحقائب بلاستيكية مليئة بالفواكه والطعام، وهو كان جالسًا على أريكة بمنتصف الصالة، قائلةً له:

- أنا جبت لك أعشاب.. الأعشاب دي بتقضي على السرطان.. وجبتلك كمان فاكهة انت لازم تتغدى عشان المرض دا عايز غدا.. وجبت كمان..
تسارعت دموعها وهي تتحدث وتفتش في الحقائب البلاستيكية لتريه ماذا أحضرت له؛ فقلبها كان يتقطع خوفًا من فقدان حبيبها.. ثم استلقت بجوار سالم واحتضنته.
في هذه اللحظة أدرك مدى حب زوجته "آية" له فكانت خير سند وشريك له في همه وكربه ومرضه.
ويذكر أيضًا حينما علمتا أخته بأنه مريض بالسرطان؛ فقد انفطر قلباهما على أخيهما وتملك منهما الحزن برؤيتهما لسالم وهو مريض بالسرطان، وقد بدأ رحلة العلاج وتساقط شعره.
لم يكن يذهب إلى متجره إلا مرة أو مرتين في الأسبوع، تدهورت حالته شيئًا فشيئًا بسبب تدهور حالته النفسية، ثم أخيرًا تذكر حديثه مع عمه صالح، جاره منذ سنين؛ فقد أتى لزيارته عندما علم بإصابته بالسرطان؛ فقال له:
- خلي أملك في ربنا كبير يا سالم يا ابني.. ماتيأسش ولا تستسلم للمرض.. مابيستسلمش غير الجبان.. وإن شاء الله تخف وتقوم بالسلامة.
- بس دا سرطان يا عم صالح.
- انت كدا هاتموت نفسك بنفسك ماتوهمش نفسك إن المرض دا مالوش علاج.. لازم يكون عندك الإرادة والرغبة والعزيمة من جواك عشان تقدر تهزم المرض.. بص يا سالم يا بني البشر دول نوعين.. نوع ماعندوش إرادة ولا ليه حلم عايز يحققه وتقليدي.. والنوع التاني عبارة عن شعلة نشاط وإرادة وعزيمة

ويقدر بإرادته يحقق أي حاجة بيحلم بيها.
- وانت شايفني من أي نوع فيهم يا عم صالح.
- انت طول عمرك من النوع التاني يا سالم بس اللي انا شايفه قدامي مش سالم اللي أعرفه.. انت عمرك ما كنت ضعيف كدا.
- ماعُنتش قادر أعمل أي حاجة.
- خلي أملك في ربنا كبير وثقتك أكبر، وشد حيلك انت بس يا بطل.. بإرادتك وبعزيمتك إن شاء الله تقدر تهزم السرطان إن شاء الله وربنا هايشفيك.
- يسمع من بؤك ربنا يا عم صالح.
- وخد بالك عشان توصل لبر الأمان لازم تمشي الطريق الضلمة اللي انت خايف تمشي فيه، عشان توصل.
كما حضرت في ذهنه عبارة قرأها يومًا ما على فيس بوك أحد أشهر وسائل التواصل الاجتماعي على الإنترنت، وكان نص العبارة:
"الحياة لا ترحم الضعفاء فكن قويًا، ولا ترحم المخطئ فتعلم من أخطائك".
كان تَذكر سالم لكلمات عمه صالح له تأثير كبير عليه، فقد أعطته أملًا وأمدته بالإرادة؛ فنهض سالم من فراشه، وهو مقبلٌ على الحياة أكثر من ذي قبل، وبدأ يمارس بعض التمارين الرياضية، وقرر أن يتحدى السرطان، وبدأ في رحلة علاجه، سار يتحدى المرض بخطى ثابتة، ومع تناوله للعلاج، بدأ يتساقط شعره، فكانت آية تحبس دموعها كلما نظرت إليه، وكانت تحمسه وتمده الأمل، أيضًا أخته لم يتركاه طوال رحلة علاجه، فكانتا خير عون له، لكن مرضه بالسرطان أظهر له بعض الأشياء التي لم يكن يراها، أظهرت له

من يحبه ومن لا يحبه، مَن بجانبه ومَن لا يبالي لأمره؛ فالمحن تظهر معدن الإنسان؛ فقد تخلى عنه أصدقاء ولم يسألوا عنه حتى، ووقف بجانبه أصدقاء فكانوا له مثل أخوته، عندها تذكر دعوة أمه له.

ربنا يوقفلك ولاد الحلال.. ويبعد عنك صحاب المال.

عانى سالم كثيرًا من الألم، وطاق من الألم ما لم يطقه إنسان، حتى إنه كان على مشرفة الاستسلام، لكن ثقته في الله سرعان ما كانت تبدل خوفه ويأسه إلى أمل وتعطيه دافعًا للمضي قدمًا.

كان دائمًا يحب سماع القرآن بصوت زوجته؛ فكان يطلب منها أن تتلوا بعض آيات القرآن بصوتها العذب.

****

- انت بتعيطي ليه.. احنا المفروض كلنا نقف جمبه وندعمه وندعيله ربنا يشفيه.

نظرت له، تمردت عليه بصوت يحترق وجوف ملتهب والدموع تغرق خديها من كثرة البكاء.

- مش قادرة يا سعد.. مش قادرة أشوف أخويا عيان بالشكل دا وبيتألم وما أعيطش.. أنا أول مرة أشوفه ضعيف كدا.. أخويا سالم هو اللي ربانى أنا ومنار.. عمل عشانا كل حاجة واتحمل عشانا كل حاجة.. ووقت ما يكون محتاج لينا عشان نساعده.. مانقدرش نعمله حاجة غير الدعاء.

هو مش محتاج مننا غير دعوة.

- ادعيله بس يا حنان.. الدعاء بيرفع البلاء..

أخذت ترجو له، تدعو لأخيها مرددة:

- يا رب يا رب اشفيه يا أرحم الراحمين ارفع عنه البلاء يا رب.

****

تعود سالم على الألم، وكلما يشتد به الألم، كانت ثقته وإيمانه بربه يزيدان، لا ينقصان لأن المؤمن يُبتلى على قدر دينه، وعندما كان يشتد به الألم يتذكر قصة سيدنا أيوب، وصبره على البلاء ثمانية عشر عامًا، دون أن ييأس أو يضعف؛ فسالم يعلم أنه اختبار من الله؛ فإن استطاع أن ينجح في التغلب على السرطان، سيكون أكبر اختبار وتحدٍ له.

علم سالم أن هذا التحدي يحتاج إلى بعض الأسلحة، أولهم التحمل؛ فكان كلما يتألم يواجه الألم بسلاح التحمل ودائمًا كان ينجح في التصدي له، ثاني سلاح هو الإرادة الحديدية، وهو أهم سلاح سيحارب به في معركته ضد السرطان؛ فاليأس لم يستطع أن يدق بابه، وكان مؤمنًا أن بإرادته سينال من السرطان، ويهزمه، أما السلاح الثالث حب أسرته له وحب الناس؛ فأثناء فترة علاجه، كانت أسرته خير سند ودعم له، وأيضًا هناك من الناس من كان يعطيه أملًا بابتسامة أو بكلمة دعم له لمؤازرته في محنته، ورابع سلاح عدم سماعه للكلام المحبط؛ فالكثير من الناس لديهم يقين أن السرطان لا شفاء له وأنه من المستحيل الشفاء منه، وهو مرض الموت، لكن سالم كان لا يأبه لهذا الكلام، لا شيء مستحيل مع الإرادة والعزيمة والثقة في الله، ربما يبدو الأمر صعبًا جدًا لكنه ليس مستحيلًا، وبما أن الشيء ليس مستحيلًا لِمَ لا تحاول مرة واثنتين وعشرة، أما السلاح الخامس والأخير والأهم، الثقة في الله وحده، في كنز لا يفنى؛ فكل شيء يتغير بالثقة في الله؛ فالثقة في الله تمدك بالأمل مهما كانت الظروف، في مصدر دائم للأمل وتحقيق الأحلام؛ لذا فهي كنز، فدائمًا سر وراء أحلامك وطموحاتك ولا تضعف فلن تندم أبدًا، فالإنسان بلا غاية

وبلا هدف خاص به يسعى لتحقيقه، لا يساوي شيئًا، وهذه قمة الفشل؛ فكل شيء في الحياة خلق لإتمام مهمته فلتتمها على أكمل وجه.

بعد فترة بدأ سالم يمارس رياضة الجري مرة أخرى بعد أن كان تركها منذ إصابته بالسرطان، وبمرور الأيام يومًا بعد يوم وشهر تلو الآخر، تمحمود ت حالته الصحية، صارت نتائج التحاليل والأشعة إيجابية، وأظهرت استجابة للشفاء، وبعد مرور عام ونصف من العلاج والصراع مع السرطان، استطاع سالم أن يهزم السرطان، وأخبره الطبيب أنه تماثل للشفاء تمامًا.

ذهب سالم إلى بيته حيث وجد زوجته وطفلته، ثم بشرهما بالخبر السعيد، بكت زوجته فرحًا بهذا الخبر؛ فمن الصعب وصف إحساسها في هذه اللحظة؛ فسعادتها هي وسالم لو وزعت على أهل الأرض لكفّتهم؛ ثم قام بالاتصال بأختيه ودعاهما للغداء في بيته بصحبة زوجيهما بمناسبة شفائه من السرطان.

ذاع صيت مريض السرطان الذي استطاع بإرادته وعزيمته أن يهزم السرطان، ذاع صيته حتى وصل إلى وسائل الإعلام، حتى دعاه أحد البرامج التلفزيونية لتصوير لقاء معه.

- مساء الخير.. وأهلًا بيكم في حلقة جديدة من "المحارب" بعنوان "السلطان هازم السرطان" النهاردا معانا محارب وبطل من نوع خاص.. أصل مش شرط المحارب يكون بيشيل سلاح ويحارب بيه العدو.. لا دا يمكن تكون كمان داخل حرب من غير سلاح.. وكمان مافيش أرض للمعركة.

- وهنا بقى في سلاح.. وسلاح مهم وخطير وكبير قوي.. انتوا عارفين السلاح دا إيه؟ الإرادة.. الإرادة دي يا جماعة هي اللي بتخلي الواحد يكون عنده تواجد من جواه إنه قادر يحقق كل حاجة.. ومفيش عنده أي حاجة غير

الإرادة.. إنه قادر ينجح ويتغلب على أي مرض.. حتى لو المرض دا كان مرض السرطان.. خلونا نرحب طبعًا بالبطل اللي احنا.. يعني كلمة محارب يمكن تكون كلمة قليلة عليه بس خلونا نرحب بـ"سالم صلاح".

- سالم أهلًا بيك، ومنورني النهاردا.

- أهلًا بحضرتك يا أستاذة.

- سالم.. سمعنا إن انت عشت حياة صعبة وكافحت في الحياة.. احكيلنا قصة كفاحك في الحياة وكفاحك مع مرض السرطان.

بدأ يحكي سالم كفاحه وكل ما مر به، مصر كلها كانت تشاهد حلقة سالم هازم السرطان.

انتهت الحلقة، وقام الجمهور كله في الاستوديو ليصفق لسالم، وأحس سالم أخيرًا بالراحة من داخله وأن هذا اختبار قاسٍ من الله وهو اجتازه بنجاح ليعده الله لحياة مُشرقة.

" تمت بحمد الله "